الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلـــوم الإسلاميـــة قسنطينـــة

كلية الآداب والحضارة الإسلامية

قسم: اللغة العربيـــة

تخصص: النقد الأدبي

رقم التسجيل:.....

الرقم التسلسلي:.....

فن التوقيعات في النقد العربي

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في النقد الأدبي

إعداد الطالب:

محمد قدوري

إشراف الدكتورة:

سكينة قدور

لجنة المناقشة :

موسى شروانة	أستاذ التعليم العالي	جامعة قسنطينة 1	رئيساً
سكينة قدور	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	مشرفاً و مقرراً
جميلة قسمون	أستاذ التعليم العالي	جامعة قسنطينة 1	عضواً مناقشاً
آمال لواتي	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر	عضواً مناقشاً

السنة الجامعية: 2012م ـ 2013م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى التي احتضنتني بحبها وعطفها المتدفق، أمي.

إلى مثال حياتي والدي أطال الله في عمره.

إلى التي كانت تدعمني بدعائها، جدتي.

إلى إخواني وأخواتي كل واحد باسمه.

إلى أعمامي وعماتي، إلى أخوالي وخالاتي.

إلى كل من مد لنا يد المساعدة من قريب أو بعيد حتى إستوى هذا البحث على ما هو عليه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

قبل أن أشكر العباد نشكر رب العباد الذي أعانني وأنار لي دربي، هذا الدرب العظيم نحمده ونشكره سبحانه وتعالى بكرة وأصيلا على مساعدته وتوفيقه لي لتتمة هذا العمل.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى الأستاذة الفاضلة الدكتورة سكينة قدور التي رافقتني وساعدتني في إنجاز هذا البحث من بدايته إلى نهايته، وعلى طول صبرها ودقة ملاحظاتها وتصويباتها وغزير نصحها.

وأتوجه بالشكر الجزيل أيضا لعمال مكتبة الدكتور أحمد عروة، وعمال مكتبة جامعة قسنطينة الأخوة منتوري على المساعدة التي قدموها لي، والتسهيلات التي وجدتها في استعارة الكتب وكل من ساعدني في انجاز هذا البحث من قريب أو من بعيد ولو بالكلمة الطيبة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة :

مضى على الأدب حين من الدهر لم يظهر بساحته سوى الشعر كفن أدبي موروث، وقد كان الشعر فن العرب الأول به يتغنون ويعبرون عن آلامهم وآمالهم، وقد استمر العطاء الشعري متدفقا فياضا مع بساطة الحياة وعفويتها إذ كان الشاعر لسان حال قومه ووسيلة أعلامهم والمحدث باسم القبيلة، وبظهور الإسلام ودخول كثير من الأمم فيه ظهر التفاعل قويا بين الحضارات والآداب فأثمر هذا تطورا وجدة للأدب، وظل النثر كفن أدبي يحتل المرتبة الثانية بعد الشعر، وظلت قضايا النثر أو الجوانب النثرية في الأدب العربي محدودة بالقياس إلى قضايا الشعر ودواعيه إلى أن أخذت الحياة العربية تدخل في مرحلة من التعقيد الفكري والاجتماعي إبان العصر العباسي، عند ذلك أخذ النثر يطرح نفسه على ساحة الفكر وسيلة فكر وأداء، إذ أن الشعر أصبح قاصرا عن التعبير عن بعض القضايا والمضامين الاجتماعية والفكرية ولا سيما عندما انتقلت الحياة الأدبية من الشفاهة إلى الكتابة .

و لقد عبر عن هذا المفهوم و الطرح كل من "طـه حسين " و"زكي مبـارك"، إذ إن "طـه حسين" نفى مطلقا أن يكون للعرب نثر فني منطلقا من أن النثر الفني تعبير جميل رصين محكم يستدعي الروية والتفكير و الإعداد، و لا يتصور أن يكون موجودا في العصر الجاهلي إذ أن هذا اللون من النثر إنما يلائم نوعا قبل الإسلام لم تكن تسمح بقيام هذا اللون من الكتابة الفنية التي تستدعي بطبيعتها الروية و التفكير و وجود جماعة إنسانية منظمة تسودها أوضـاع سياسية و اجتماعية معقدة و هذا النثر المنسوب إلى الجاهلين ليس إلا شيئا منحولا مدسوسا عليهم، كما أنه اعتبر حياة الجاهليين هي عيشة بدائية أولية، والحياة الأولية لا تتطلب النثر الفني لأنه لغة العقل بقدر ما تتطلب الشعر لأنه لغة العاطفة و الخيال .

أما "زكي مبارك" فقد أثبت أن للعرب نثرا و دليله في هذا هو القرآن الكريم فقط متجاهلا كل التجاهل الأجناس الفكرية التي عرفها العرب في الجاهلية كالخطب، غير مؤمن بجميع النصوص النثرية التي أُثرت عن الجاهليين. إذ يقول: و خلاصة ما أراه أنه كان للعرب قبل الإسلام نثر فني يتناسب مع أذهانهم و سلامة طباعهم و لكنه لأسباب أهمها شيوع الأمية وقلة التدوين، و بُعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام و دونها.

غير أن الواقع يشهد بخلاف ما ذهب إليه "طـه حسين" و"زكي مبارك" فقد وُجـدت كتب و مضان حفظت لنا هذه النصوص النثرية ومن تلك المصادر: البيان و التبيين "للجاحظ"، و الكامل في اللغة "للمبرد"، و الصناعتين "لأبي هلال العسكري"، وأدب الكاتب "لابن قتيبة " و الرسالة العذراء "لابن المدبّر" و البرهان في و جوه البيان "لابن وهب" و إحكام صنعة الكلام "للكلاعي" و غيرها من تلك الكتب التي ما فتئت تشهد بوجود النثر منذ العصر الجاهلي .

فانتشار الكتابة يعد عاملاً قوياً في بروز الحركة النقدية للنثر بعدما كانت محاولات محتشمة في نقد النثر تخص بعض الفنون، فتطور الحضارة صاحبه تطور في الأدب يلبي حاجات الحياة المعقدة التي لم يعد الشعر وحده كافيا لتلبيتها و هكذا حدث التطور في الأدب من نزعته الشفاهية المتمثلة في الشعر إلى نزعته الكتابية المتمثلة في النثر و خاصة منه الأجناس النثرية الكتابية التي تلبي الحاجات الحضرية للإنسان .

و بهذا التقدم الملحوظ ظهر كِبار الكتاب في الدواوين يختارون من الفصحاء و البلغاء حتى عدّت هذه إلى ما نسميه بالمدرسة النثرية، إذ كانوا يتعهدون من تحت أيديهم من صغار الكتاب و كانوا لا يزالون يراجعونهم فيما يكتبون من رسائل فإذا وقفوا منهم على ناشئ تنم كتابته عن تفنن في القول شجعوه و ربما قدموه إلى الخليفة .

و قد بلغ من مكانة الكتاب في هذا العصر إلى منزلة الوزارات و هكذا تبدلت الأدوار فأخذ الناثر المكانة المرموقة التي يحتلها الشاعر بفضل التطور الحضاري الحاصل، و من أشهر من برعوا في هذا المجال "عمرو بن مسعدة الصولي"، "الفضل بن سهل"، "محمد بن عبد الملك الزيات" ، و بهذا نشأت العلاقة الحميمية بين الكتابة و السياسة .

و تعد التوقيعات الأدبية أحد هذه الفنون التي ارتبطت بالكتابة و شروطها و السياسة إذ إن التوقيع نوع من الأنواع الأدبية الرفيعة لا تظهر مع بداية حياة الشعوب، بل تحتاج إلى حياة متطورة في شتى أنواعها و نخص الذكر الكتابة، فقد بدأ ظهور التوقيعات مع العصر الإسلامي ثم تطورت وازدهرت حتى أصبحت لها أشكالها الفنية و تمتاز بخصائص عدة و بأسلوب يميزها عن غيرها من الأنماط الأدبية.

امتدت التوقيعات و أخذت في الانتشار إلى نهاية الدولة العباسية و هي تعتمد على بلاغة الموقع و سعة ثقافته و عمق تجربته و إنشاء توقيعاته من بنات أفكاره .

و لمعالجة ودراسة هذا الموضوع الموسوم "بفن التوقيعات في النقد العربي " انطلقنا من الإشكال الآتي :

ـ كيف تلقى النقاد العرب نص التوقيعات ؟، ويتفرع عنه الإشكالات الآتية:

ـ لماذا لم نجد دراسة فنية جمالية تكشف عن أغوار التوقيعات رغم ما تشتمل عليه من كثافة و إيجاز مع أن كتب الأدب تحفل بفيض زاخر منها منذ العصر الإسلامي حتى أفول نجمها في أواخر العصر العباسي؟

ـ هل لأن التوقيعات تتحدث عن قضية أو حالة يشترط فيها أن تكون مكتوبة وهي ليست في كل وقت، بينما الفنون الأدبية الأخراة تأتي تعبيرا عن الأحاسيس و العواطف و في كل وقت؟

ـ ثم لماذا لم نر البلاغين لفتوا الانتباه إليها رغم ما تحتويه من إيجاز ؟

ـ هل لأن التوقيعات درست مع فن الترسل لكونها تابعة للرسالة و ذيل لها ؟

أما أسباب اختيار هذا الموضوع فيرجع إلى :

ـ تناول بعض الكتب له تناولا مجتزءا و مبتوراً، إذ و قفوا عند حدود التعريف و ضرب بعض الأمثلة له و أغفلت الحديث عن نشأته وارتباطه بالكتابة وعن أهم العوامل المؤثرة فيه, كما أنها أغفلت بلاغة أدائها واكتفت بذكر عدد محدود من البلغاء والكتّاب ممن أجادوا هذا الفن دون أن تقدم تفصيلات دقيقة وافية للذين أسهموا في رقيه وانتشاره من الخلفاء و الوزراء. و فضلا عن هذا أن معظم الدراسات في هذا المجال هي دراسات تاريخية صرفة غير مشفعة بدراسة تحليلية فنية تكشف لنا جمال هذه التوقيعات، ومن أهم تلك الدراسات :

ـ فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي لحمد بن ناصر الدخيل: وهو مقال منشور في مجلة أم القرى في حوالي ثلاثين صفحة وقد تضمن التعريف بالتوقيعات، والحديث عن نشأتها وتطورها، ثم عرض لمصادر التوقيعات الأدبية في كتب الأدب كالعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، وخاص الخاص للثعالبي، وذكر أنواع التوقيعات بحسب مصادرها من القرآن والحديث

والشعر والحكمة والمثل، ثم أورد طائفة منها بدءا من العصر الإسلامي, فالأموي، فالعباسي الذي يعد العصر الذهبي لهذا الفن، وخلص الباحث إلى الحديث عن مقاييس التوقيع الأدبي.

ـ التوقيعات لرفيق حسن الحليمي: وهو مقال منشور في مجلة الوعي الإسلامي على شبكة المعلومات في حدود ثلاث صفحات تحدث فيها الباحث عن مفهوم التوقيع في اللغة والاصطلاح مشيرا إلى زمن انتشارها الواسع في العصر العباسي، ثم تعرض لنسبة التوقيعات كفن عربي خالص ليخلص في الأخير إلى بعض جوانب الجمال الفني فيها.

ـ التوقيعات الديوانية لمحمد علي شاهين: وهو مقال منشور على شبكة المعلومات في حدود إحدى عشرة صفحة، وتضمن التعريف بالتوقيع وممن اشتهروا به، معددا أنواع التوقيعات.

ـ جمال فن التوقيعات المعنوي لمسرت جمال: وهو مقال منشور على شبكة المعلومات في حدود ثلاث وعشرين صفحة، تطرقت هذه الدراسة إلى مفهوم التوقيع ونشأته، إلى أهم مواصفات التوقيع الأدبي المتمثلة في الإيجاز والبلاغة والإقناع، لتخلص الباحثة إلى أثر التوقيعات في السياسة والأدب لترد طائفة من نماذج التوقيعات باختلاف أعصرها.

ـ التوقيعات فن أدبي نسيناه ليسرى عبد الغني عبد الله: وهو مقال منشور في مجلة الموقف الأدبي على شبكة المعلومات في حدود خمس صفحات، تحدث فيه الباحث عن المعنى الاصطلاحي للتوقيع وبعض خصائصها في العصر الأموي ليخلص إلى سرد طائفة من توقيعات العصر العباسي.

ـ فن التوقيعات في الأدب العربي لعبد الكريم حسين علي رعدان: وهو مقال منشور في مجلة الدراسات الاجتماعية، قسمه الباحث إلى ثلاثة مباحث؛ فالأول ناقش مفهوم التوقيعات وأهميتها ونشأتها وتطورها التاريخي، وتناول الثاني طائفة من نصوص التوقيعات لمختلف العصور والوقوف عليها بالشرح اللغوي، أما المبحث الثالث فوقف على تلك النصوص بالدراسة الأسلوبية والتحليل النقدي من حيث الخصائص الدلالية والأداء الأسلوبي.

وأغلب هذه الدراسات هي مقالات مبثوثة في المجلات .

أما السبب الثاني فيعود إلى جمال التوقيعات و بلاغته و إيجازه، فالناظر إليه يفتتن بمثل هذه الجمل القصيرة و المعبرة وهي مخالفة تماما لما نعرفه من المثل و الحكمة .

أما الصعوبات التي لا يخلو منها أيبحث علمي فقلة المصادر التي تعرضت لهذا الموضوع ولاسيما أن أغلبها أدبي أو تاريخي محض كالعقد الفريد لابن عبد ربه أو خاص الخاص للثعالبي

و لقد اعتمدت في دراستي لهذا الموضوع على

المنهج التاريخي: و يبرز في تطور هذا الفن بدءا من العصر الإسلامي إلى الأموي فالعباسي مع ربطه بأهم المؤثرات التي أثرت فيه سواء في تميزه وازدهاره إلى أهم عوامل ذبوله و اختفائه .

و **المنهج التحليلي الوصفي** :الذي اعتمدته في تتبع جوانب البلاغة و الجمال في هذه التوقيعات من جهة ولربط النص بمحيطه الاجتماعي من جهة أخرى .

أما **المنهج الإحصائي** : فاستعنت به في رصد عدد التوقيعات بالنسبة لكل موقع, ومدى حضورها أو قلتها متبعا ذلك بجملة من التعليلات والتفسيرات.

أما الخطة التي انتظمت هذا البحث فتنحصر في ثلاثة فصول وخاتمة .

الفصل الأول وعنوناه بالتوقيعات الأدبية، النشأة والتطور ويتضمن مبحثين؛ الأول منهما يعنى بالتعريف بالتوقيع ونشأته منذ العصر الإسلامي إلى أفول نجمه في العصر العباسي وأهم أنواعه، أما المبحث الثاني فيعرف بموضوعاته وأهم خصائصه الفنية .

أما الفصل الثاني فكان لتتبع مادة التوقيع في المدونة النقدية القديمة ويضم ثلاثة مباحث ؛ جاء الأول في" مصادر التوقيعات" أما المبحث الثاني فهو "التوقيعات ومصادر التنظير لها" ليكون الثالث "الذين أشاروا إلى التوقيعات إشارة عابرة" في بعض الكتب التي تطرقت إلى التوقيع كالبيان والتبيين والصناعتين .

أما الفصل الثالث فيخص برصد التوقيعات في المدونة النقدية الحديثة ومدى حضورها وجاء في مبحثين؛ الأول "قراءة في مصادر التوقيعات" التي حاولت جمع التوقيعات وحفظها والثاني "قراءة في محاولات التنظير لها" لنختم بحثنا بخاتمة نرصد فيها أهم النتائج المتوصل إليها .

وفي الأخير أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى أستاذتي الفاضلة المشرفة على هذا البحث (**سكينة قدور**) . حفظها الله . فلولا تحفيزها وتشجيعها النادر والمثال لما خرج بحثي إلى النور، كما أشكر سلفا كل أعضاء لجنة المناقشة على ما سوف يتفضلون به من جهد في قراءة هذا البحث وتقويمه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول:

التوقيعات الأدبية؛ النشأة والتطور.

المبحث الأول: تعريف التوقيعات نشأتها و أنواعها.

المبحث الثاني :التوقيعات موضوعاتها وخصائصها الفنية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: تعريف التوقيعات نشأتها و أنواعها

1- التوقيع لغة واصطلاحا :

أ- لغةً :

يطلق التوقيع في اللغة على عدة معان حقيقية وأخرى مجازية، حسية ومعنوية، ذكرتها معجمات اللغة، كالصحاح واللسان و التاج. ولكن المعاني التي ذكرتها كتب اللغة للفظة التوقيع لا تهمنا في مجال بحثنا بقدر ما يهمنا المعنى اللغوي الذي اشتقت منه التوقيعات بعدها فناً أدبياً. فالتوقيعات مشتقة في اللغة من التوقيع « في الكتاب وهو إلحاق شيء فيه، ومنه أيضاً هو أثر الرّحل على ظهر البعير»[1] وجاء في مقاييس اللغة « وقع الغيث، سقط متفرقاً،ومنه التوقيع، ما يلحق بالكتاب بعد الفراغ منه»[2]، أما صاحب الصحاح فالتوقيع عنده « ما يوقع في الكتاب، يقال السرور توقيع جائز»[3] وجاء في التاج أن التوقيع «مشتق من الوقوع لأنه سبب وقوع الأمر المذكور، أو لأنه إيقاع لذلك المكتوب في الكتاب، فتوقيع كذا بمعنى إيقاعه»[4]

أمَا"ابن منظور" فقد أورد تعريف "الأزهري" الذي يقول فيه : « توقيع الكتاب، أن يحمل بين تضاعيف سطوره مقاصد الحاجة، ويُحذف الفضول، وهو مأخوذ من توقيع الدّبر ظهر البعير، فكأن الموقع في الكتاب يؤثر في الأمر الذي كتب الكتاب فيه ما يؤكده و ويوجبه»[5]

فالناظر إلى هذه التعاريف اللغوية التي أوردتها معاجم اللغة يكاد يجتمع الأمر على أن التوقيع ناتج عن أثر سواءً كان من أثر الرحل على ظهر الدابة، أومن غيث على وجه الأرض أو غيره.

(1) الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح، عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1 (1424هـ-2002م)، مج4، ص392- 393. باب الواو ، مادة وقع

(2) أحمد بن فارس، مقاييس اللغة ، تح عبد السلام هارون، دار الجيل (بيروت)، (د .ط)، (د. ت)، مج6،ص134.

(3) الرازي، مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، دار الحديث، (د .ط)، (د .ت)، ص732.

(4) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر، ط1 (1414ه-1994م)، مج11، ص526.

(5) ابن منظور، لسان العرب، تح أحمد حيدر ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1 (2005)، مج، ص371. باب الواو، مادة وقع

ب- اصطلاحا :

لقد اكتسبت التوقيعات في الإسلام معنى اصطلاحياً يرتبط بمعناها اللغوي السالف الذكر، فهي تطلق على ما يوقعه الكاتب في جواب القضايا أو الطلبات المرفوعة إلى الخليفة أو السلطان أو الأمير. يقول "البطليوسي" « وأما التوقيع فأن العادة جرت أن يستعمل في كل كتاب يكتبه الملك، أو من له أمر و نهي في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره، أوفي عرضه بإيجاب ما يسأل أو منعه، كقول الملك: يُنفّذ هذا إن شاء الله، أو هذا صحيح، وكما يكتب الملك على ظهر الكتاب، لترد على هذا ظلامته أو لينظر في خبر هذا أو نحو ذلك»[1]فتعريف "البطليوسي" يدَلّ على أن التوقيع يكون أسفل الكتاب إن من ناحية ظهره أو عرضه بإيجاب ما يسأل ، كما يدل التعريف على أن الموقع يوقعه الملك أو من ناب عنه، مشيرا إلى بعض خصائص التوقيع كالإيجاز و الاختصار والبلاغة وذلك من خلال المثالين المشار إليهما في التعريف.

أما "القلقشندي" فقد عرّف التوقيع بأنه: «الكتابة على الرقاع والقصص بما يعتمده الكاتب من أمر من أمر الولايات و المكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة أو التحدث في المظالم.»[2] وهذا التعريف يحدد مهام التوقيع سواء كان في الأمر الخاص بالولاية أو المملكة أو الرد على المظالم، أما "ابن خلدون" فعرفه بقوله «ومن خطط التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القَصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها،ملقاة على السلطان بأوجز لفظ و أبلغه، فإما أن تصدر كذلك،و إما أن يحنو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه.»[3] ويبدو تعريف ابن خلدون جامعا لما يشتمل عليه التوقيع فهو أولاً بيد الملك أو نائبه ويكون فاصلاً في المشكل مضافاً إليه جودة البلاغة.

وسرعان ما تتطور دلالة التوقيع في العصر العباسي، ويكتسب معنى أدبياً، فأصبح يطلق على تلك «الأقوال البليغة الموجزة المعبرة التي يكتبها المسؤول في الدولة، أو بأمر كاتبها على ما يرفع إليه من

(1) البطليوسي، الاقتضاب، في شرح أدب الكتاب، تح عبد الله أفندي البستاني، المطبعة الأردنية بيروت، (د.ط)، (1907)، ص101.
(2) القلقشندي، صح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، القاهرة، (د.ط)، (1340 هـ - 1992م)، مج1، ص110.
(3) ابن خلدون، المقدمة، دار الرائد العربي، بيروت لبنان، ط5 (1402هـ - 1982م)، ص247.

قضايا أو شكايات متضمنة ما ينبغي اتخاذه من إجراء نحو قضية أو مشكلة، وهي بهذا المفهوم أشبه ما تكون بتوجيه المعاملات الرسمية في الوقت الحاضر. »[1]

وفي العصور الوسطى أُضيفت إلى التوقيعات دلالة جديدة مع بقاء دلالتها الأدبية السائدة في العصر العباسي؛ حيث أصبحت تطلق على الأوامر والمراسيم التي يصدرها السلطان أو الملك لتعين وال أو أمير أو وزير أو قاض أو حتى مدرس، وامتازت بطولها و الإسهاب في ذكر الحيثيات والأسباب المتنوعة للتعيين، حتى تجاوز بعضها أربع صفحات، وقد أورد القلقشندي نماذج كثيرة في كتابه "صبح الأعشى" .

والتوقيعات بهذا المفهوم لا تعد توقيعات أدبية«لافتقادها عنصر البلاغة و الإيجاز ولا تدخل ضمن هذا المفهوم، ثم يتحول معناها بعد ذلك إلى علامة اسم السلطان خاصة التي تذيل بها الأوامر والمراسيم والصكوك كالإمضاء عندنا، تم التوسيع في معناها فأصبحت تدل على تأشيرة الاسم وهي كتابة الهيئة الخاصة التي تقابل في الإنجليزية لفظة(signature) »[2]

2- نشأة التوقيعات:

التوقيعات فن أدبي نشأ في حضن الكتابة وارتبط بها، ولذلك لم يعرف عرب الجاهلية التوقيعات الأدبية بسبب أن الكتابة لم تكن شائعة بينهم، بل الذين يعرفون الكتابة قلة نادرة، وبهذا شاعت الفنون الأدبية القائمة على المشافهة و الارتجال، كالشعر و الخطابة، كذلك لم تعرف التوقيعات في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الكتابة أيضاً لم تكن شائعة، وقد جاء الإسلام كما يذكر "ابن عبد ربه" «وليس يكتب بالعربية غير سبعة عشر إنساناً»[3]

ولعل أقدم ما وصلنا من التوقيعات في تاريخ الأدب، ما كتب "أبو بكر الصديق"- رضي الله عنه – "لخالد بن الوليد" حينما بعث للصديق خطاباً من دومة الجندل يطلب أمره في أمر العدو، فوقع إليه "أبو بكر"«أُدنُ من الموت تُوهبْ لك الحياة»[4]، ثم شاعت التوقيعات بعد هذا لشيوع الكتابة.

(1) حمد بن ناصر الدخيل، فن التوقيعات الأبية في العصر الإسلامي و الأموي والعباسي، مجلة أم القرى (د.ط)، (1422 هـ .2001 م)، ع 22 ، مج 13 ص1095

(2) المرجع نفسه ، ص1096

(3) ابن عبد ربه، العقد الفريد، تح محمد مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1 (1404هـ - 1983م)، مج4، ص240.

(4)الثعالبي ، خاص الخاص، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص86.

إلا أننا نرى بعض الدارسين من يعزو التوقيعات إلى ملوك الفرس ومنهم " جرجي زيدان"[1] و "شكري فيصل"[2]و "شوقي ضيف" الذي يقول: « التوقيعات جنس نثري له سمات خاصة وهي عبارات موجزة بليغة تعود إلى ملوك الفرس و وزرائهم أن يوقعوا بها على ما يقدم عليهم من تظلمات الأفراد في الرعية و شكاواهم، وحاكاهم خلفاء بني العباس ووزراؤهم في هذا الصنيع»[3]. فرأي "شوقي ضيف" ومن تبعه من هؤلاء النقاد لا يثبت أمام ما قدمناه من براهين تثبت أن التوقيعات بدأت مع الخليفة "أبي بكر الصديق" بل ويؤكد "أحمد محمد الحوفي" أن التوقيعات منبتها عربي أصيل، معتمدا على دليلين:

1- أن العرب عرفوا التوقيعات و مارسوها في أحسن صورها قبل أن يتصلوا بالفرس و يحاكوهم.

2- التوقيعات قائمة على ما يلائم الفطرة العربية من ميل إلى الإيجاز ومقدرة على البيان وسرعة خاطر وحضور بديهة، فليس العرب بحاجة إلى أن يحاكوا غيرهم فيما يلائم طباعهم أشد الملاءمة [4]، ويضاف إلى هذا كله أن صاحب العقد الفريد أورد طائفة من توقيعات الخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين ،وهذه كوكبة من التوقيعات راعينا فيها الترتيب الزمني والمعيار التطوري بدءًا من العصر الإسلامي و انتهاء بالعصر العباسي.

أ - صدر الإسلام

إن التوقيعات التي أُثرت في تاريخ الأدب العربي في صدر الإسلام تعد قليلة ولا تتجاوز أصابع اليد وهي لم تشكل بعد فناً قائماً بذاته، لأنها بدايات مطبوعة انطلقت من سجية دون تمحيص، صدرت عن موهبة فذة وتجربة عميقة وخبرة طويلة و ثقافة واسعة، يدعم ذلك كله دربة وجرأة متولدة من حاكم يشعر بالمسؤولية تجاه دينه وأمته و بلده. ويعود السبب في قلة التوقيعات زمن الخلافة الراشدة إلى:

(1) ينظر، جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة بيروت لبنان، (د .ط) 1967، مج 4 ، ص92

(2)ينظر، شكري فيصل، مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط6 (1406 هـ - 1986 م) ، ص 108

(3) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط16 (2004)، ص489.

(4)أحمد محمد الحوفي ، أدب السياسة في العصر الأموي نقلا عن هشام مناع ومأمون ياسين، النثر في العصر العباسي، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، ط1 (1999)، ص223

– ضياع توقيعات تلك الأمة أو عدم تدوينها، أو اختلاطها بأقوال الخلفاء رضي الله عنهم، ذلك أن المصادر لم تميز بين هذه الأقوال التي عمادها اللسان وبين التوقيعات التي عمادها الكتابة.

– انتشار العدل وعموم الأمن والآمان.

– نصرة المظلوم و معاقبة الظالم.

– اتصال الخلفاء بالرعية وجلوسهم إليهم.[1]

– وجود البطانة الصالحة التي لا تسيطر عليها الأهواء والمصالح الشخصية.

ومن أبرز تلك التوقيعات في هذه الفترة ما وقعه الخليفة "عمر بن الخطاب" رضي الله عنه في مكاتبته لرجال الدولة من ولاة وقواد، أن "سعد ابن أبي وقاص" كتب إليه من الكوفة يستأذنه في بناء دار الإمارة، فوقع على أسفل كتابه «ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر»[2].

ووقع أيضاً في كتاب "عمرو بن العاص"« كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك»[3]

وأثرت" لعثمان بن عفان" رضي الله عنه بعض التوقيعات ومنها : وقَع في قصة رجل شكا عيلة « قد أمرنا بما يقيمك ، وليس في مال الله فضل للمسرف »[4]

وأما توقيعات "علي بن أبي طالب" رضي الله عنه فأكثر مما بلغنا من توقيعات أبي بكر وعمر وعثمان، من توقيعاته، كتب إليه "الحسن والحسين" في شيء من أمر عثمان فوقع «رأي الشيخ خير من مشهد الغلام »[5] ، ووقع أيضا في كتاب "سلمان الفارسي" وكان سأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة « يحاسبون كما يرزقون »[6]، ووقع في كتاب لصعصعة بن صوحان يسأله في شيء «قيمة كل امريء ما يحسن »[7].

ونلاحظ بعد هذا أن توقيعات الصحابة تمتاز بالبلاغة و وجازة التعبير .

(1) ينظر هشام مناع ومأمون ياسين، النثر في العصر العباسي ، ص215.
(2)ابن عبد ربه، العقد الفريد، مج4، ص287
(3) المصدر نفسه، مج4، ص287
(4)المصدر نفسه، مج4، ص287
(5) الثعالبي ، خاص الخاص، ص86
(6) ابن عبد ربه ، العقد الفريد مج4، ص288
(7)المصدرنفسه، مج4 ، ص،288

ب–العصر الأموي:

التوقيعات في العصر الأموي هي امتداد لصدر الإسلام، إلا أنه أصبح فنا أدبيا اعتاد عليه كل خليفة وأمير و وال أن يوقع على الرسائل التي ترد إليه بعد أن يطلع عليها ويعرف مضمونها, ويمكن عدَها بذورا صالحة نمت في بيئة محفوفة بالرعاية مما جعلها أساسا لهذا الفن الذي سيستقل بشخصيته عن الفنون الأدبية في العصر التالي له ،وقد وصل إلينا من توقيعات خلفاء بني أمية ابتداء من معاوية بن أبي سفيان وانتهاء بمروان بن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية في المشرق ما توقيعات كثيرة منها :

وقع "معاوية بن أبي سفيان" في كتاب«نحن الزمان من رفعناه ارتفع،ومن وضعناه اتضع »[1]، وكتب إليه "ربيعة بن عسل اليربوعي" يسأله أن يعينه في بناء دار بالبصرة باثني عشر ألف جذع فوقع إليه «أدارك في البصرة أم البصرة في دارك»[2].

وكتب "عبد الله بن جعفر بن أبي طالب إلى يزيد بن معاوية يستميحه لرجال في خاصته فوقع إليه «احكم لهم بآمالهم إلى منتهى آجالهم »[3].

وكتب الحجاج بن يوسف الثقفي إلى عبد الملك بن مروان يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسي منهم، ويستأذنه في قتل أشرافهم فوقع له «إن من يمن السائس أن يأتلف به المختلفون ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون»[4] ، ووقع عمر بن عبد العزيز لوالي العراق يخبره عن سوء طاعة أهلها «أرض لهم ما ترضى لنفسك وخذهم بجرائمهم بعد ذلك»[5] ووقع أيضا في رقعة محبوس «تب تطلق»[6] ، ولهشام بن عبد الملك توقيعات كثيرة منها أنه وقع في قصة قوم شكوا أميرهم «إن صح ما ادعيتم عليه عزلناه وعاقبناه »[7] .

(1) الثعالبي ،خاص الخاص، ص86
(2) ابن عبد ربه ، العقد الفريد، مج4،ص288
(3) المصدر نفسه، مج4 ، ص288 – 289
(4) المصدر نفسه ، مج4، ص289
(5) المصدر نفسه ، مج4، ص290
(6) المصدر نفسه ، مج4، ص291
(7) المصدر نفسه، مج4، ص292

ومن توقيعات الحجاج ما وقع به في قصة محبوس ذكروا أنه تاب«ما على المحسن من سبيل»[1].

ج – العصر العباسي :

ازدهرت التوقيعات الأدبية في هذا العصر لازدهار الكتابة الفنية وتعدد أغراضها وحلت محل الخطابة في كثير من شؤون الدولة وقضاياها، وأصبح الكاتب البليغ مطلبا من مطالب الدولة تحرص عليه وتبحث عنه لتسند إليه عمل تحرير المكاتبات وتحبير الرسائل في دواوينها . وبهذا أصبح لا يحظى بالوزارة إلا ذوو الأقلام السيالة من الكتاب والبلغاء .

ففن التوقيعات قد انتشر في هذا العصر بعد أن نمت بذوره في العصور السابقة، إذ قطف العباسيون ثمار هذا الفن ناضجة وتعود أسباب ازدهاره إلى عوامل كثيرة أهمها [2]:

1 – انتشار الفتوحات الإسلامية واتساع رقعة الدولة الإسلامية بعد الانتصار على الفرس والروم واعتناق كثير من الجنسيات والقوميات الدين الإسلامي .

2 – انتشار الكتابة والتعلم والتعليم بعد أن كانت الكتابة مقصورة على عدد محدود من المسلمين في صدر الإسلام، إذ أخذ الرسول الكريم يشجع على تعلم الكتابة – التي هي عماد التوقيعات – بطرق مختلفة ،من ذلك أنه جعل فداء بعض أسرى قريش في بدر ممن تعلموا الكتابة أن يعلموها عشرة من صبيان المدينة[3]، ثم أخذت الكتابة في الانتشار بين صفوف المسلمين ولاسيما في الدولتين الأموية والعباسية .

3 – حاجة الولاة إلى الردود السريعة على مكاتباتهم أو رسائلهم لأهميتها وكثرتها, خشية تراكمها وتأخرها، مما يحول دون حل مشاكل الولاة والناس والنظر في مصالحهم .

4 – مواقف بعض الحكام أو الولاة من الرعية ، مما يدفع بهم إلى الكتابة فورا إلى من هو أعلى منهم لعرض حاجاتهم ومطالبهم .

5 – تشدد بعض الولاة، وانتشار الفساد في بعض المناطق وكثرة المظالم والتظلم من الولاة وتفضيل المصالح الشخصية على الأمور الخاصة بشؤون الدولة والرعية .

(1) ابن عبد ربه ، العقد الفريد،مج4 ، ص301

(2)ينظر ، هشام مناع ومأمون ياسين ، ص 220 - 221

(3) ينظر شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف، ط 11، (د .ت) ، ص95

6 – ظهور كثير من الكتاب في بلاط الخلفاء والحكام ومقدرتهم على التأنق في حياتهم الأدبية ،من هؤلاء جعفر بن يحيي، والفضل بن سهل، وغيرهم كثير، يقول الجهشياري : «وكان جعفر بليغا كاتبا وكان إذا وقع نسخت توقيعاته، وتدورست بلاغاته»[1].

7 – اهتمام الناس بالتوقيعات، وولعهم بها، وحرصهم على اقتنائها، كان البلغاء يتنافسون في تحصيل توقيعات جعفر بن يحي الذي كان يلي ديوان التوقيع للرشيد ليقفوا منها على أساليب البلاغة وفنونها، حتى قيل : «إنها كانت تباع كل قصة منها بدينار »[2] .

ومن أبرز توقيعات العباسيين ما وقعه السفاح في كتاب ورده من جماعة من أهل الأنبار يذكرون أن منازلهم أخذت منهم وأدخلت في البناء الذي أمر به ولم يعطوا أثمانها : «هذا بناء أسس على غير تقوى »[3] . ووقع أبو جعفر المنصور في كتاب ورد من أهل الكوفة شكوا فيه عاملهم «كما تكونوا يؤمر عليكم »[4] . ووقع المهدي إلى صاحب خراسان في أمر جاءه «أنا ساهر وأنت نائم »[5] .

ووقع هارون الرشيد في قصة رجل من البرامكة «أنبتته الطاعة وحصدته المعصية »[6] .

ووقع المأمون إلى عامل شكاه أهل عمله «إن آثرت العدل حصلت على السلامة, فانصف رعيتك من هذه الظلامة »[7] .

ووقع الصاحب بن عباد أنه رفع إليه بعضهم رقعة يذكر أن بعض أعدائه يدخل داره فيسرق السمع فوقع فيها «دارنا هذه خان يدخلها من وفَى ومن خان »[8]، ووقع في رقعة استحسنها﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمَ أَنتم لا تبصرون﴾[9].

(1)الجهشياري ، الوزراء والكتاب، تح عبد السلام إسماعيل الصاوي، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي مصر، ط1 (1357 هـ – 1938 م)، ص 158
(2) ابن خلدون ، المقدمة، ص247
(3) ابن عبد ربه ، العقد الفريد، مج4 ،ص293
(4)المصدر نفسه ، مج4، ص294
(5) المصدر نفسه، مج4 ، ص295
(6) المصدر نفسه، مج4، ص 296
(7) الثعالبي، خاص الخاص، ص89
(8)الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، تح محمد رضوان الداية، دار الثقافة بيروت لبنان، (د،ط) ،(د،ت)، ص161
(9) الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1(1404هـ -1983م)، مج3،ص234، الطور، الآية 15

ونكتفي بهذا القدر من أمثلة توقيعات الخلفاء فهي كثيرة جدا ولاسيما في العصر العباسي الثاني إذ شاعت على أقلام عدد من الكتاب والوزراء المشهورين .

3 – أنواع التوقيعات:

إن الناظر في كتب التراث التي تحدثت عن التوقيعات لا يجدها تخرج عن هذه الأنواع الآتية :

أ – التوقيع آية قرآنية :

ويشترط في التوقيع الذي يكون آية قرآنية أن يناسب الموضوع الذي تضمنه الطلب ،ومن ذلك أن أبا محمد الحسن بن محمد المهلبي قبل تقلده منصب الوزارة كان يعاني من قلة ذات اليد وشدة الفقر، وسافر في بعض الأيام مع رفيق له أديب من أهل الأسفار ولكنه لقي في سفره مشقة ونصبا ولا زاد معه ولا مال، ونزل مع رفيقه في بعض الأماكن واشتهى اللحم، فلم يجد ثمنه فأنشد ارتجالا ورفيقه يسمع :

ألا موت يباع فأشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه

إذا أبصرت قبرا من بعيد وددت لو أنني مما يليه

فتأثر رفيقه بالأبيات ورق له فاشترى بدرهم لحما ،ثم بعد هذا حسنت أحوال المهلبي وتقلد الوزارة وضاقت الحال برفيقه الذي اشترى له اللحم ،فشد الرحال إلى المهلبي وكتب له في رقعة :

ألا قل للوزير فدته نفسي مقال مذكر ما قد نسيه

أتذكر إذ تقول لضنك عيش ألا موت يباع فأشتريه

فلما قرأ المهلبي الأبيات تذكر صحبة رفيقه ،ورد الفضل لأهله والمعروف لمستحقيه ،فأمر له بسبع مائة درهم ووقع في رقعة قوله تعالى﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء﴾[1]

ومن ذلك ما كتب به عامل أرمينية إلى الخليفة العباسي المهدي يشكو إليه سوء طاعة الرعية فوقع المهدي في خطابه قوله تعالى﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾[2]

(1) ينظر الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، ص162-163، سورة البقرة الآية، 261

(2) ابن عبد ربه ، العقد الفريد، مج4، ص295، سورة الأعراف الآية، 199

ب – التوقيع ببيت من الشعر :

ومن أمثلته، ما وقع به الخليفة سليمان بن عبد الملك بن مروان لقتيبة بن مسلم الباهلي يتهدده بالخلع فوقع في كتابه :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع[1]

وكذلك ما كتب به أذفونش الطاغية (الملك السادس لقشتالة) ليوسف بن تاشفين في الأندلس يتوعده ويتهدده، فوقع يوسف في كتابه ببيت أبي الطيب المتنبي :

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ولا رسلا إلا الخميس العرمرم[2]

ج – التوقيع مثلا سائرا:

ومن تلك التوقيعات ما وقع به علي بن أبي طالب إلى طلحة بن عبد الله «في بيته يؤتى الحكم»[3] ومن ذلك أيضا ما وقع به يزيد بن الوليد بن عبد الملك إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وقد أخبر يزيد أنه يتلكأ في مبايعته بالخلافة «أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابي فاعتمد على أيهما شئت »[4] .

د – التوقيع حكمة :

ومن أمثلة هذا ما وقع به السفاح – الخليفة العباسي الأول– في رقعة قوم شكو احتباس أرزاقهم «من صبر في الشدة شارك في النعمة »[5]، وكتب إبراهيم بن المهدي إلى الخليفة المأمون يعتذر إليه مما بدر منه من خروجه عليه ومطالبته بالخلافة فوقع المأمون «القدرة تذهب الحفيظة ، والندم جزء من التوبة وبينهما عفو الله »[6] .

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، مج4، ص 290
(2)الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، ص 164
(3) ابن عبد ربه ، العقد الفريد، مج4، ص287
(4) المصدر نفسه، مج4، ص292
(5) المصدر نفسه، مج4، ص293
(6) المصدر نفسه، مج4، ص299

هـ – التوقيع الشخصي:

ومن تلك التوقيعات التي تندرج في هذا الباب توقيع يحي بن خالد البرمكي على رسالة رفعت إليه ركيكة العبارة جميلة الخط «الخط جسم روحه البلاغة ولا خير في جسم لاروح فيه»[1]، وكذلك ما وقع به ابنه جعفر بن يحي بن خالد البرمكي لبعض عماله «قد كثر شاكوك وقل شاكروك فإما عدلت وإما اعتزلت »[2]

المبحث الثاني :التوقيعات موضوعاتها وخصائصها الفنية .

1 –موضوعاتها :

لم تكن التوقيعات تقتصر على موضوع دون آخر فقد شملت أغراضا شتى وموضوعات متنوعة، وأنماطا عديدة، ومرد هذا راجع إلى فيض رقاع الشكاوى وقصص التظلمات التي كان يرفعها أفراد الرعية إلى الديوان، ولاشك أن تعدد موضوعات هذه المكاتبات على نحو لافت أنقلب أثره في التوقيعات نفسها، ومن هنا اتسعت مادة التوقيع وتباينت أغراضه.

أ – رد المظالم وإقامة العدل:

لعلنا لا نبالغ إذ قلنا إن إنصاف المتظلمين وإزالة شكاياتهم ظل من أهم الموضوعات التي عبرت عنها التوقيعات العباسية حتى مطلع القرن الرابع هجري[3]، وقد كان الخلفاء أنفسهم يباشرون – أحيانا – النظر في المظالم، فتعرض رقاع الشكوى بين أيديهم فيوقعون على كل رقعة بما يناسبها، وقد يتولى عنهم ذلك وزراؤهم مثل ما وقع به جعفر البرمكي في قصة قوم شكوا سوء جوار بعض قرابته «يرحل عنكم »[4]، فهذا التوقيع دل على إبطال الظلم وتوثيق عرى العدل والأمن في المجتمع وقد يكون التوقيع ناطقا بالحاجة إلى فسحة من الزمن يستطيع الرئيس فيها معاينة وجه الحقيقة والتوثق من حيثيات الأمر ومن ذلك ما وقع به الحسن بن سهل في قصة متظلم «ينظر في ما رفع

(1) حمد بن ناصر الدخيل، فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، ص1099

(2) ابن عبد ربه ، العقد الفريد، مج4، ص302

(3) ينظر، محمد محمود الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي ،دار الفكر عمان ،ط1 (1420هـ – 1999م)، ص73

(4) أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية بيروت لبنان (د .ط)، (د .ت)، مج4، ص385

فإن الحق منيع وإلا فشفاء السقيم دواء السقم»[1]، وأشد من هذا التوقيع لهجة وأبعد وقعا ما وقع به طاهر بن الحسين[2] في رقعة منتصح﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾[3] .

وكانت التوقيعات في بعض الأحيان تتضمن إقرارا صريحا بعدم القدرة على رفع الظلم وإحقاق الحق لتعذر الوسائل التي تمكن الموقع من تحقيق هذا الأمر كما هو الحال في توقيع طاهر بن الحسين «طلبت الحق في دار الباطل »[4].

ب – مخاطبة الولاة والوزراء والقادة :

كثيرا ما كانت التوقيعات تتضمن مخاطبة الوزراء والولاة والعمال وغيرهم من طوائف المسؤولين في الدولة إلى وجوب أخذ الرعية بمقتضيات العدل ورد المظالم وسياسة الناس بالمعروف ومعاملتهم باللين، كما كانت التوقيعات تعنى بدعوة المسؤولين إلى تحمل مسؤولياتهم، ومن ذلك توقيع المهدي إلى عامله على خراسان وقد كتب إليه يخبره بغلاء الأسعار «خذهم بالعدل في المكيال والميزان »[5]، وكذلك ما وقع به الوزير جعفر البرمكي إلى بعض الولاة «الخراج عمود الملك وما استعزر بمثل العدل وما استنزر بمثل الجور »[6] .

ج ـ العفو عن المذنبين :

وفي هذا الإطار كثرت التوقيعات المكتوبة في العفو عن المذنبين, ودارت طائفة واسعة من توقيعات هذا الباب حول إطلاق أهل الحبوس، فمن ذلك توقيع الرشيد في قصة سجين «من لجأ إلى الله نجا»[7]، ومنه توقيع جعفر البرمكي في قصة مسجون «العدل يوبقه، والتوبة تطلقه »[8]، ولاينأى

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، مج4، ص304

(2) ولد في خراسان سنة 109هـ، اتصل بالمأمون منذ الصبا ولاه قيادة الجيوش التي توجهت إلى حرب الأمين فدخل بغداد سنة 198 هـ ووطد الملك للمأمون فأكرمه ولاه الزيرة والشام والمغرب ثم استقل بخراسان وساءت علاقته مع المأمون ، قتل سنة 207 هـ ، (تاريخ بغداد، مج9، ص353).

(3)ابن عبد ربه، العقد الفريد، مج4، ص305 سورة النمل الآية27

(4) المصدر نفسه، مج4، ص305

(5)المصدر نفسه، مج4، ص296

(6) أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، مج4، ص386

(7) ابن عبد ربه، العقد الفريد، مج4، ص 296 .

(8) المصدر نفسه، مج4 ، ص302 .

عنه توقيع الحسن بن سهل في قصة امرأة حبس زوجها «الحق يحبسه والإنصاف يطلقه »[1]، وأشد هذه التوقيعات صراحة توقيع طاهر بن الحسين في قصة رجل دخل الحبس«يطلق ويعتق »[2] .

د- تلبية نداء المتضررين المعوزين :

ومن الأغراض البارزة للتوقيع، ما كان يكتب في تلبية نداء المتضررين وأصحاب الحاجات المعوزين، فمن التوقيعات التي تناولت إغاثة من حلت بهم نكبة خلفت ما يستدعي العون؛ توقيع المهدي في قصة أصحاب قحط«يقدر لهم قوت سنة القحط والسنة التي تليها »[3]، ووقع المأمون في رقعة أهل السواد الذين شكوا إتيان الجراد على غلاتهم «نحن أولى بضيافة الجراد من أهل السواد فليحط عنهم نصف الخرج »[4].

ومن التوقيعات التي صدرت في سد حوائج المعوزين وقضاء ديونهم، ما وقعه المهدي في قصة رجل من الغارمين «خذ من بيت مال المسلمين ما تقضي به دينك وتقر به عينك»[5]ومثل ذلك ما وقع به الفضل بن سهل في أمر رجل شكا غلبة الدين «قد أمرنا لك بثلاثين ألفا وسنشفعها بمثلها ليرغب المستمنحون »[6] .

هـ- ما يتعلق بالحياة الدينية :

ومن تلك التوقيعات ما وقعه السفاح في كتاب أبي مسلم الخراساني يستأذنه في الحج وفي زيارته «لا أحول بينك وبين زيارة بيت الله الحرام وخليفته وإذنك معك »[7]، كما وقع المنصور في قصة رجل سأله أن يبني بقرية مسجدا فإن مصلاه على بعد «ذلك أعظم لثوابك »[8]، ووقع المنصور في رقعة رجل طلب بناء مسجد في محلته « إن من أشراط الساعة أن تكثر المساجد فزد في خطاك يزد في أجرك »[9].

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، مج4، ص304 .
(2) المصدر نفسه، مج4 ، ص305 .
(3) المصدر نفسه ، مج4 ، ص295 .
(4) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص89 .
(5) ابن عبد ربه، العقد الفريد مج4،ص295
(6)المصدر نفسه، مج4، ص303 .
(7) المصدر نفسه ، مج4 ، ص293 .
(8) المصدر نفسه، مج4، ص294 .
(9) الثعالبي ، خاص الخاص، ص88 .

فتظافر هذه الموضوعات مجتمعة شكل ظاهرة فريدة في الدعوة الى الأخلاق الحميدة ،وتوجيه الأمة إلى الكمال والحياة الأفضل، كما أنها عالجت القضايا بكل وعي وحزم وقوة بعيدا- إلى حد ما- عن المصالح الشخصية والأهواء الذاتية .

2 ـ شروط كتاب التوقيعات :

يقول القلقشندي : «التوقيع أمر جليل ومنصب حفيل إذ هو سبيل الإطلاق والمنع والوصل والقطع ،والولاية والعزل إلى غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السنية »[1]، ومن خلال هذا الكلام المنصب على مهنة التوقيع كان لازما على من يتولاه بادئ الأمر أعلى سلطة في الدولة (الخليفة) وإذا غاب الخليفة ناب الأمر إلى كاتبه وبهذا المعنى فكاتب الخليفة هو السلطان الآمر بالمنع والوصل والقطع والعزل .

فتوقيعات صدر الإسلام كانت مقصورة على الخلفاء الذين لم تكن تشترط فيهم شروط الكتاب، فقد صدرت عن هؤلاء الخلفاء رضوان الله عليهم عن وعي عقلي وفطنة حادة وتجربة عميقة وثقافة واسعة، ولما كان من حق الخلفاء الذين تولوا الخلافة عن طريق المبايعة التوقيع ،فإنهم حرصوا على إعطاء التوقيع للوزراء والولاة لاتساع الرقعة الإسلامية وكثرة الأعمال الملقاة على أنفسهم وعلى عاتق من ولاهم، وكان لابد أن تتوفر فيهم شروط نذكر أهمها[2] :

1- أن يكون عالما حكيما عارفا بأحوال الناس ،عميق التجربة، طويل الخبرة، قوي الدربة.

2- أن يكون من أرفع الطبقات، أهل مروءة وحشمة، صاحب عمل وبلاغة، عالي الأخلاق، متحل بالفضائل وفي هذا يقول ابن خلدون : «واعلم أن صاحب التوقيع لابد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم، لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك، مع ما تدعوا إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ومع ما يضطر إليه في الترسل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها »[3].

(1) ينظر القلقشندي ، صبح الأعشى ، مج1، ص110 - 111

(2) ينظر، المصدر نفسه، مج1، ص61 - 67

(3)ابن خلدون، المقدمة، ص247 .

3- أن يكون دقيق الذهن، حسن البيان، رقيق حواشي اللسان، حلو الإشارة، مليح الاستعارة، لطيف المسلك، حاد الذكاء، قوي الفطنة .

4- الإسلام، ليؤمن فيما يكتبه ويمليه ويوثق فيما يذره ويأتيه، فلا يجوز أن يولى أحد من أهل الكفر

5- الحرية، يشترط في كاتب السلطان أن يكون حرا لما في العبد من النقص فلا يعتمد في كل القضايا، ولا يوثق به في كل الأحوال .

6- التكليف، لا يعول على الصبي في الكتابة إذ لا يوثق به ولا اعتماد عليه .

7- قوة العزم وعلو الهمة وشرف النفس, فإنه يكاتب الملوك والناس عن ملكه فكل كاتب يجذبه طبعه وجلالته .

8- العلم بمواد الأحكام الشرعية والفنون الأدبية وغيرها، إذ الجاهل لا تميز له بين الحق والباطل، ولا معرفة ترشده إلى الطرق المعتبرة في الكتابة، ومن سلك طريقا بغير دليل ضل أو تمسك بغير أصل زل .

3 ـ الخصائص الفنية للتوقيعات :

ليس كل توقيع يصلح أن يكون توقيعا أدبيا ، وإنما يشترط في التوقيع خصائص منها :

ا- الإيجاز؛ وهو أن يكون قليل اللفظ غزير المعنى.

ب- البلاغة؛ وهو أن يكون التوقيع مناسبا للحالة أو القضية التي قيل فيها .

ج- الإقناع، وذلك أن يتضمن التوقيع من وضوح الحجة وسلامتها ما يحمل الخصم على التسليم ومن قوة المنطق وبراعته ما يقطع على صاحب الطلب عودة المراجعة .

د- ليس في التوقيعات مجال للتملق والمداهنة، أو المراء و الكذب، أو المخادعة والمراوغة، أو التخاذل لأنها تصدر عادة عن رئيس إلى مرؤوس.

هـ- اعتمدت التوقيعات على الاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والتضمين للشعر والنثر وما جرى مجراهما، فوقعت هذه التوقيعات في أحسن موقع وقامت في أجمل مقام، ونظمت في أجمل نظام[1] .

(1) ينظر ، القلقشندي ، صبح الأعشى، مج 1، ص203

و– قامت هذه التوقيعات على الفطرة السليمة والموهبة الفذة والبديهة الحادة والارتجال في التعبير عن الحال, والثقافة الواسعة والتجربة العميقة والخبرة الطويلة .

ز–جاءت في صياغتها كاملة وفي تراكيبها تامة، لا حشو فيها ولا زيادة ولا تطويل ولا إطناب.

ح– تمتاز بأسلوب موجز محكم رصين مكثف لذلك جاءت العبارات متينة في مبناها محكمة في صياغتها، جزلة في صناعتها، فخمة في نسجها .

ط– لم تكن التوقيعات تعنى بالتشبيهات أو الصور، إلا ما جاء عفو الخاطر دون معاناة أو تكلف لأن جل اهتمامها كان ينصب على إصابة المعنى .

ي– شاع في التوقيعات بعض المحسنات البديعية مثل السجع والجناس والطباق والمقابلة ومن ذلك ما وقعه عبد الملك بن مروان في كتاب منتصح « إن كنت صادقا أثبتناك وإن كنت كاذبا عاقبناك وإن شئت أقلناك »[1].

وهناك من الموقعين من نمقوا عباراتهم وزينوا ألفاظهم، ونخص بالذكر كتاب العصر العباسي من أمثال جعفر بن يحي البرمكي .

(1) الثعالبي ، خاص الخاص، ص87.

الفصل الثاني:

التوقيعات في المدونة النقدية القديمة

المبحث الأول: مصادر التوقيعات.

المبحث الثاني: التوقيعات ومصادر التنظير لها.

المبحث الثالث: الذين أشاروا إلى التوقيعات إشارة عابرة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: مصادر التوقيعات :

إن الناظر إلى مادة التوقيع في مظان الأدب لا يكاد يعثر عليها في كتب معينة مخصصة، بل هي متناثرة هنا وهناك في مصادر مختلفة تتنازعها كتب اللغة والأدب والتاريخ والتراث عامة. ثم إن هذه المصادر اختلفت وتنوعت في مادتها بين منظر وبين مجمع ومتقص لفن التوقيع، وأهم هذه المدونات :

1-العقد الفريد لابن عبد ربه (ت 327هـ)

يعد كتاب العقد الفريد من أهم المؤلفات الأدبية، كان الهدف منه وضع دائرة معارف صغيرة تفي بمطالب الأديب على النحو الذي كان يطلب منه في ذلك العصر من الإلمام من كل علم بطرف، فهو يعرض لكل ضروب المعرفة في عصره على النحو الذي ازدهرت عليه في المشرق، إذ صور كتابه عقدا من العقود التي تتحلى بها النساء وهو مؤلف من خمس وعشرين جوهرة كريمة اثنتا عشرة في جانب واثنتا عشرة أخرى في جانب وجعل للعقد واسطة لكنه لم يسم إلا الإثني عشرة الأولى ؛ فلؤلؤة وفريدة وزبرجدة وجمانة ومرجانة وياقوتة وجوهرة وزمردة ودرة ويتيمة وعسجدة ومجنبة أما الأثنتا عشرة التي في الجانب الآخر فهي هذه الأسماء مكررة فاللؤلؤة الثانية والفريدة الثانية ... ، فعقده منظوم من جواهر كريمة وفيه من كل صنف جوهرتان متقابلتان إلا الواسطة وهو خيال شاعري لطيف لم يسبقه أحد إليه، فهو يقدم لكل باب بمقدمة من إنشائه ومن شعره إن وجد ثم ينقل من أقوال وأشعار الآخرين، وأحيانا نراه ينقد ما ينقل فنجد له آراء جيدة فيستحسن أو يستهجن أو يخالف الآخرين في آرائهم كما أنه يعد أول مصدر عني بتدوين فن التوقيعات، إذ تعرض ابن عبد ربه لهذا الفن في كتاب المجنبة الثانية في التوقيعات والفصول و الصدور والكتابة وأخبار الكتبة وفيه تحدث عن الكتاب الذين كانوا يكتبون للخلفاء وعن صفاتهم، وقد جاء الحديث عن التوقيعات بعد أن تحدث عن الخطب.

أورد ابن عبد ربه في هذا الباب توقيعات لعدد من الخلفاء في عصر صدر الإسلام بدءا من الخليفة الراشد عمر بن الخطاب . رضي الله عنه . ومن ذلك ما وقعه إلى عمرو بن العاص «كن لرعيتك

كما تحب أن يكون لك أميرك»[1] ومن العصر الأموي نذكر ما وقع به يزيد بن معاوية إلى عبد الرحمان بن زياد وهو عامله على خراسان «القرابة واشجة والأفعال متباينة فخذ لرحمك من فعلك»[2] ومن توقيعات العصر العباسي ما وقعه أبو جعفر المنصور إلى رجل شكا الدين «إن كان دينك في مرضاة الله قضاه»[3]، ومضى في رصد توقيعات العصر العباسي إلى عهد الخليفة المأمون(ت218هـ) .

لم يقتصر ابن عبد ربه على توقيعات الخلفاء بل أثبت نماذج كثيرة من توقيعات الأمراء والولاة والقادة والكتاب، وكبار رجال الدولة مثل الحجاج بن يوسف الثقفي، ومن توقيعاته ما وقعه إلى قتيبة بن مسلم «خذ عسكرك بتلاوة القرآن، فإنه أمنع من حصونك»[4]، وأبي مسلم الخرساني[5] ومن أبرز توقيعاته ما وقعه إلى أبي سلمة الخلال حين أنكر نيته﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم﴾[6] وجعفر بن يحي البرمكي ومن توقيعاته، ما وقعه في قصة رجل سأل ولاية «لا أولي بعض الظالمين بعضا»[7] والفضل بن سهل ومن توقيعاته البليغة والقصيرة ما وقعه لحاجبه «تمهل وتسهل»[8] والحسن بن سهل ومن ذلك ما كتب إليه رجل من الشعراء يقول له :

رأيت في النوم أني راكب فرسا ولي وصيف وفي كفي دنانير
فقال قوم لهم فهم ومعـــرفـــة رأيـــت خيرا وللأحلام تعبير
رؤياك فسر غدا عند الأمير تجد تعبير ذاك وفي النوم التباشير

فوقع في أسفل كتابه﴿أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾[9]وطاهر بن الحسين ومن أجمل توقيعاته من الشعر ماوقعه إلى العباس بن موسى الهادي واستبطأه في خراج ناحية:

(1) ابن عبد ربه ،العقد الفريد ، مج4، ص 287 , ينظر، جمهرة رسائل العرب ، مج1 ، ص530
(2) المصدر نفسه ، مج 4 ، ص 289 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب، مج2 ، ص493
(3) المصدر نفسه ، مج 4 ، ص 294
(4) المصدر نفسه، مج 4 ، ص 300 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب، مج2، ص503 (خذ أهل عسكرك ...)
(5) هو عبد الرحمان بن مسلم, أحد كبار قادة الدعوة العباسية، ولد سنة 100هـ ، اتصل بإبراهيم بن الإمام محمد العباسي ، أوفده داعية إلى خراسان ، استقامت له خراسان ، قاتل الأمويين وانتصر عليهم ، ساءت علاقته بالمنصور فقتله سنة 137 هـ ،(تاريخ بغداد، مج10، ص207).
(6) ابن عبد ربه ، العقد الفريد، مج 4 ، ص 301 ، البقرة الآية 14 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب ، مج4 ، ص382
(7) المصدر نفسه ، مج 4، ص 302 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب ، مج4 ، ص385
(8) المصدر نفسه ، مج 4، ص 303 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب ، مج4 ، ص388
(9) المصدر نفسه ، مج 4 ، ص 304 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب، مج4، ص390، يوسف الآية 44

وليس أخو الحاجات من بات نائما ولكن أخوها من يبيت على رحل[1]

وختم الباب بإيراد طائفة من توقيعات ملوك الفرس من أمثال أردشير ومن توقيعاته ما وقعه في أزمة المملكة «من العدل أن لا يفرح الملك ورعيته محزونون»[2] وكسرى ومن ذلك ما رفع رجل يخبره أن جماعة من بطانته قد فسدت نياتهم وخبثت ضمائرهم، منهم فلان وفلان فوقع «إنما أملك ظاهر الأجسام لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالهوى، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر»[3] وأنو شيروان[4] ومن أحسن توقيعاته ما وقعه في قصة محبوس «من ركب مانهي عنه حيل بينه وبين ما يشتهي»[5] .

فتعداد التوقيعات عند ابن عبد ربه بلغ مائتين واثني وثلاثين توقيعا إذ بلغت توقيعات الصدر الأول عشرة توقيعات وكلها تصب في تعليم القيم والأخلاق السامية كما هو الحال في توقيع علي . كرم الله وجهه . رأي الشيخ خير من مشهد الغلام، أما توقيعات الأمويين فقد بلغت خمسة وخمسين توقيعا ويغلب على مضامينها مخاطبة الولاة والقادة كما هو الحال في توقيعات يزيد بن معاوية[6] وعبد الملك بن مروان[7] وعمر بن عبد العزيز[8]، إلا أن اللافت للنظر أن توقيعات هذا الأخير تعد أكثر من غيرها في مخاطبة الولاة وإقامة العدل ولاسيما أنه رام دولة إسلامية قائمة على ما عرف في زمن عمر بن الخطاب، أما توقيعات العباسيين فقد بلغت مائة وثلاث وستين توقيعا وهي لا تختلف كثيرا عن توقيعات الأمويين إلا أنها كانت أكثر عددا وأحسن صياغة وبلاغة بل أن توقيعات جعفر بن يحيي البرمكي وحدها فاقت سبعة عشر توقيعا عن بقية الأمراء والكبراء أمثال

(1) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مج 4 ، ص 305

(2)المصدر نفسه ، مج 4 ، ص 306

(3) المصدر نفسه ، مج 4 ، ص 306

(4) هو أنو شيروان بن خالد أبو نصر القاشاني وزر للمسترشد، ووزر للسلطان محمود بن محمد، توفي سنة 532 هـ ،(سير أعلام النبلاء، مج17 ، ص20)

(5) المصدر نفسه، مج 4، ص 306

(6) هو أبو خالد المنتصر يزيد ، كانت بداية خلافته في رجب سنة 60 هـ - ونهايتها 64 هـ (موسوعة أعلام الخلفاء، ص113 - 116).

(6) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ولد سنة 86 هـ ، وكانت خلافته في شهر رمضان سنة 65 هـ ونهايتها سنة 86 هـ وتوفي في السنة نفسها(موسوعة أعلام الخلفاء، ص 118 - 122).

(7) هو الخليفة الصالح أبو حفص، ولد بحلوان قرية بمصر سنة 61 هـ ، وقيل سنة 63 هـ ، كانت خلافته في صفر سنة 90 هـ ، ونهايتها سنة 101 هـ وهي سنة وفاته (موسوعة أعلام الخلفاء، ص 132 - 138).

الحجاج والفضل بن سهل وغيرهم وهذا يدل دلالة قاطعة على تفرده وتميزه حتى أن توقيعاته كانت تباع بدينار(أي التوقيع الواحد بدينار)

و الملاحظ للتوقيعات الواردة في هذا الباب يجد أن ابن عبد ربه أغفل توقيعات النفر الباقين من خلفاء بني العباس؛ كالأمين والمعتصم والواثق والمتوكل ومن بعدهم، كما أغفل إثبات ثلة من توقيعات الوزراء والكتاب كأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة[1] – الذي يعد من أشهر كتاب التوقيعات بل كان رئيسا لديوان التوقيع – وإبراهيم بن العباس الصولي[2]، وفوق هذا كله لم يثبت توقيع الخليفة أبي بكر الصديق الذي يعد أول توقيع.

إن المتفحص لهذه النماذج من التوقيعات في هذا الباب يكاد لا يعثر على حكم نقدي أو حتى إشارات تنظر لهذا الفن، فقد كان هم ابن عبد ربه جمع التوقيعات المختلفة والمتناثرة هنا وهناك ،فمنهجه أشبه بمنهج الإخباريين في سرد الوقائع والأحداث، ولا أثر للحاسة النقدية عنده فهو يذكر الوقائع والأحداث على شكل أخبار دون أن يعلل أو يرجح أو يبدي رأيه إلا في ما نزر فكأنه قد ترك الحكم للقارئ .

2–الوزراء والكتاب للجهشياري[3] (ت331هـ).

يعد كتاب الوزراء والكتاب من المصادر القديمة وهو مصدر معدود بين المراجع العربية في التاريخ الحافلة بالحوادث التاريخية التي لم تقع عليها عين باحث، ولقد اقتصر الجهشياري على من مات من الوزراء تاركا الأحياء والمعاصرين جريا على سنة أكثر المؤرخين، وقد اختار لمادة كتابه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم، وأحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفونه ويحسنونه، حيث افتتح كتابه بالعجم أمثال أردشير ثم أردفه بالخلفاء الراشدين من أبي بكر الصديق حتى علي مدونا ما حدث في أيامهم لينتقل بعدها إلى العصر الأموي بدءا من معاوية بن أبي سفيان إلى مروان بن محمد الجعدي مسجلا أهم الحوادث في أيامهم ليختم كتابه بالخلفاء

(1) أصله من صول، اتصل بالمأمون فأعجب به وجعله وزيرا له، وكان فصيحا ذا قدرة على الإنشاء والكتابة توفي سنة 217هـ (تاريخ بغداد، مج12، ص203)

(2) ينظر ، محمد محمود الدروبي ،الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص 70 .

(3) هو محمد بن عبدوس بن عبد الله الكوفي الجهشياري، مؤرخ من الكتاب المترسلين، نشأ مع أبيه في بغداد، كان أبوه حاجبا للوزير علي بن عيسى فخلفه على الحجابة له، مات ببغداد ، (الأعلام، الزر كلي، مج 6، ص256)

العباسين انطلاقا من أبي العباس السفاح إلى الخليفة المأمون متتبعا في ذلك أهم ما جرى في أيامهم .

احتفى كتاب الوزراء والكتاب بالتوقيعات إلا أن هذه المادة وردت فيه في مواضع متفرقة[1] من الكتاب بحكم طبيعة الكتاب القائمة على الأسمار من جهة وعلى التأريخ لأشهر الوزراء من جهة ثانية .

اهتم الجهشياري بتوقيعات معينة من الوزراء والكتاب ولاسيما جعفر بن يحي البرمكي[2] ، ويرجع الاهتمام بهذا الوزير لما عرف من بلاغته وكثرة توقيعاته، بل وصلت توقيعاته إلى أن كانت تباع كل منها بدينار وهذا يدل على براعته وتفننه في هذا المجال بل كان البلغاء يتنافسون عليها لما احتوته من ضروب التعبير البلاغي الجدير بالحفظ وبهذا كانت مادة التوقيعات الموجودة في الكتاب خاصة بجعفر فقط، إلا النزر القليل لتوقيعات الرشيد[3] أو الفضل بن سهل أو المأمون[4].

وإلى جانب نصوص التوقيعات ألمح الجهشياري إلى التعريف بالتوقيع ومن يقوم به، يقول في عبارة موجزة : «ولم تزل كتب الملوك والرؤساء تجري في التوقيعات على أن يوقع الرئيس في القصة بما يجب فيها ويذكر المعاني التي يأمر بها، ولم يكن للكتاب في ذلك الأمر شيء أكثر من أن يكتبوا تلك الجملة في التوقيع ألفاظا بشرحها، وتقرب من العامة فهمها ولا تخرجها عن معنى قصد الرئيس»[5]، وما يلفت النظر في هذا التعريف أن التوقيع من مهمة الملك أو الرئيس دون سواه وما على كاتب التوقيع إلا الامتثال لذلك فلا يتولى التوقيع في غياب الملك أو الرئيس أحد .

---

(1) ينظر، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص144 -157-160-205 .

(2) هو أبو الفضل ولد ببغداد سنة 150هـ استوزره الرشيد وعلت مكانته في الدولة حتى خشي الرشيد على نفسه، فنكب البرامكة، وأخذ جعفر فقتل وأحرق سنة 187 هـ (تاريخ بغداد، مج7، ص 152- 160)

(3) هو الرشيد هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عباس، ولد بالري في آخر ذي الحجة سنة خمس وأربعون ومائة ، تولى الخلافة وهو ابن إحدى وعشرين سنة فكانت بداية خلافته في شهر ربيع الأول أو الثاني سنة 170 هـ ونهايتها سنة 198 هـ ، توفي بطوس سنة 198 هـ وهو ابن أربع وأربعين سنة (سير أعلام النبلاء، مج9، ص 286).

(4) هو عبد الله بن هارون وكنيته أبو جعفر ، ولد سنة سبعين ومائة في ليلة الجمعة منتصف ربيع الأول ، فكانت خلافتة سنة 198 هـ وانتهت سنة 218 4 هـ (موسوعة أعلام الخلفاء، ص188 - 205).

(5) الجهشياري، صبح الأعشى، ص164 .

3-من نثر الدرر للآبي[1] (ت421هـ)

يعد نثر الدرر واحدا من كتب الأدب العربي القديم ومصدرا قيما من مصادر الأدب والتاريخ العربيين ، وهو كغيره من المصادر أمثال العقد الفريد و أدب الكاتب، إذ تميز هذا الكتاب بمنهجه الذي اعتمده الكاتب في ترتيب موضوعاته التي تضمنت الكثير من المأثورات الأدبية والإشارات التاريخية والأخبار والنوادر والتراجم وألوان الجد والهزل والخطب والرسائل والحكمة والمثل، وقد رتبت هذه الموضوعات وفق تسلسل زمني محكم وامتدت حتى أواخر العصر العباسي، إذ يقع هذا الكتاب في أربعة أجزاء .

لقد احتفى الآبي بنماذج من التوقيعات في كتابه من "نثر الدرر" الواقع في أربعة أجزاء مخصصا في الجزء الثالث من الباب السابع فصلا كاملا سماه : "فضول الكتاب والوزراء وتوقيعات ونكت من كلامهم ونوادرهم " والناظر إلى التوقيعات الموجودة في هذا الفصل يجدها غير مستقلة بل هي متضمنة ومندسة بين نكت ونوادر الوزراء هذا من جهة، ومقتصرة على القلة القليلة من الوزراء أمثال جعفر بن يحي وأحمد بن هشام وإبراهيم بن العباس[2] والفضل بن سهل وجوهر مولى الفاطميين[3] من جهة أخرى ؛ ومن أبرز تلك التوقيعات ما وقع به جعفر بن يحي إلى عامل له «وأنصف من وليت أمره وإلا أنصفه منك من ولي أمرك»[4]، وكذلك ما وقع إبراهيم بن العباس في ظهر رقعة «إذا كان للمحسن من الحق ما يقنعه وللمسيء من النكال ما يقمعه، بذل المحسن الحق رغبة وانقاد المسيء له رهبة»[5] وكذلك ما وقعه الفضل بن سهل إلى تميم بن مخرمة «الأمور

(1) هو منصور بن الحسين الرازي أبو سعيد الآبي نسبته إلى آبة من قرى ساوة ولي أعمالا جليلة، صحب الصاحب بن عباد، واستوزره مجد الدولة رستم بن فخر للدولة البويهية له مصنفات منها نثر الدرر، (الأعلام، الزركلي، مج 7، ص298)

(2) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول وكان رجلا من الأتراك ، فتح يزيد بن المهلب بلده وأسلم على يده، توفي منتصف شعبان سنة ثلاث وأربعين ومائتين (وفيات الأعيان، مج1، ص46 - 48)

(3) هو جوهر مولى الفاطميين الصقلي القائد الذي أرسله المعز لدين الله لفتح مصر، ففتحها وبنى القاهرة والجامع الأزهر وبعض القصور ,وقد توفي بالقاهرة (سير أعلام النبلاء، مج16، ص 467).

(4) الآبي، من نثر الدرر ، تح، مظهر الحجي، منشورات وزارة الثقافة (د . ط) 1997 م ، مج 3 ، ص198

(4) المصدر نفسه ، مج 3 ، ص 198 – 199، ينظر، جمهرة رسائل العرب ، مج4 ، ص398 (إذا كان للمحسن من الجزاء ما يقنعه ...وانقاد المسيء للحق رهبة)

بتمامها والأعمال بخواتيمها، والصنائع باستدامتها وإلى الغاية ما يجري الجواد فهناك كشفت الخبرة قناع الشك فحمد السابق وذم الساقط »[1]

إن معظم تلك التوقيعات التي أوردها الآبي في هذا الفصل يغلب عليها الطول في عباراتها بخلاف ما عرفناه عن التوقيعات من إيجاز وبلاغة، ومن تلك التوقيعات ما وقع به جعفر بن يحي لعلي بن عيسى : «حبب الله إليك الوفاء يا أخي فقد أبغضته، وبغض إليك الغد فقد أحببته إني نظرت في الأشياء لأجد فيها ما يشبهك فلما لم أجد رجعت إليك فشبهتك بك ولقد بلغ من حسن ظنك بالأيام أن أمنت السلامة مع البغي ,وليس هذا من عاداتها.»[2]، وكذلك هو الحال في توقيع جوهر مولى الفاطميين [3]

4 . مؤلفات الثعالبي : (خاص الخاص، تحفة الوزراء، يتيمة الدهر) (ت 429 هـ)

حذا أبو منصور الثعالبي . في أوائل القرن الخامس حذو ابن عبد ربه بتدوين قدر غير يسير من التوقيعات, ولكنه لم يحصرها في كتاب واحد، بل هي متفرقة في كتبه مثل كتاب خاص الخاص و تحفة الوزراء المنسوب إليه وقدر غير يسير في يتيمة الدهر التي اتجه فيها إلى إثبات ما يختاره من عيون الشعر والحكم والأمثال والأقوال البليغة .

أ ـ خاص الخاص :

كتاب خاص الخاص أهم مصدر من المصادر التراثية التي اعتنت بتدوين التوقيعات على الرغم من صغر حجمه، حيث عقد فصلا أورد فيه طائفة من توقيعات الملوك المتقدمين مثل الاسكندر المقدوني, وبعض ملوك الفرس والروم، ويغلب على هذه التوقيعات أنها كلها في أمور الملك والسلطنة وشيء من شؤون الرعية كتلبية نداء المتضررين، من ذلك ما وقعه بطليموس الأصغر ملك الروم إلى عامله بالشام حين كتب إليه في انحياز بعض الملوك الكبار إلى مستقره«لا تطمع في كل ماتسمع»[4]، وكذلك ما وقعه نرسي بن بهرام أحد الأكاسرة عندما رفع إليه أهل اصطخر

(1) الآبي، من نثر الدرر، مج 3، ص 207، ينظر، جمهرة رسائل العرب ، مج4 ، ص389
(2)الآبي، من نثر الدرر، مج3 ، ص211
(3) ينظر،الآبي ، المصدر نفسه ، مج 3 ، ص201 .
(4) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص 84

يشكون احتباس القطر واشتداد القحط «إذا بخلت السماء بقطرها جادت يد الملوك بدرها وقد أمرنا لكم بما يجبر كسركم ويغني فقركم»[1]، وعقد فصلا ثانيا أثبت فيه عددا من توقيعات الخلفاء والقواد والأمراء والولاة المسلمين ومن أبرز تلك التواقيع ما وقعه الخليفة أبو بكر الصديق لخالد بن الوليد يستأمره في أمر العدو «ادن من الموت توهب لك الحياة»[2] وكذلك ما وقعه عبد الملك بن مروان في كتاب الحجاج يشكو إليه أهل العراق«ارفق بهم فإنه لا يكون مع الرفق ما تكره ومع الخرق ما تحب»[3] وكذلك ما وقعه المأمون إلى الرستمي وقد تظلم منه غريم له «ليس من المروءة أن تكون أوانيك من الذهب والفضة وجارك طاو وغريمك عاو»[4]، وعقد فصلا ثالثا دوّن فيه أجناسا من توقيعات الوزراء وكبار رجال الدولة العباسية، ومن ذلك ما وقعه جعفر بن يحي البرمكي في رقعة معتذر من ذنب «قد تقدمت طاعتك وسبقت نصيحتك فإن بدرت منك هفوة فلن تغلب سيئة حسنتين»[5]، وكذلك ما وقع به "الفيض بن أبي صالح"[6] في رقعة معتذر تائب «التوبة للمذنب كالدواء للمريض فإن نصحت توبته أتم الله شفاءه وإن تكن الأخرى أدام الله داءه»[7]، ومن ذلك ما وقعه "عبد الله بن طاهر" في كتاب أحد قواده يسأله حط خراجه والزيادة في أرزاقه«أفي النوم أبصرت ذا كله فخيرا رأيت وخيرا يكون»[8]، وبمثل هذا ما وقعه "عبد الله بن المعتز" في كتاب قهرمانه ينسب "وكيله إلى الخيانة«اغن من وليته عن السرقة فليس يكفيك من لم تكفه»[9]، وأما ما وقعه "عبد الله بن محمد بن يزداد" إلى عامل اعتذر بكفايته«يا هذا أسرفت وما أنصفت وأوجفت

(1) الثعالبي، خاص الخاص، ص 84
(2) المصدر نفسه، ص 86 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب، مج1 ، ص530
(3)المصدر نفسه، ص87 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب ، مج2، ص493
(4) المصدر نفسه ، ص 88 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب ، مج4 ، ص378
(5) المصدر نفسه، ص 90 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب ، مج4 ، ص386
(6) الفيض بن أبي صالح الوزير الكبير أبو جعفر الفارسي، أسلم وكان نصرانيا، وزر للمهدي إلى أن توفي سنة 173 ، كان جوادا يضرب بكرمه المثل (سير أعلام النبلاء، مج 8 ، ص 276)
(7) الثعالبي، خاص الخاص ، ص 91 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب ، مج4 ، ص383
(8) المصدر نفسه، ص 90
(9) المصدر نفسه، ص 90 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب، مج4 ، ص400

حتى أعجفت وأذللت حتى أمللت فاستصغرت ما فعلت تبلغ ما أملت»[1]، وبمثل هذا ما وقعه "الصاحب بن عباد" في رجل مجرم يسأله الأنصاف«مثلك منصف ولا ينصف»[2] .

تبدو العناوين التي أثبتها الثعالبي في الباب دقيقة وموضحة ومميزة لتوقيع عن آخر ومن أمثلة ذلك "فصل في غرر التوقيعات الإسلامية للملوك"، فنلاحظ أنه قد رمز إلى هذه الطائفة من التوقيعات بالغرة التي تعلو جبهة الفرس لتميزه عن الآخرين، فهذه التوقيعات في اعتقاد الثعالبي تعلو مكانة خاصة إذ هي المبدأ والمنشأ للتوقيع هذا من جهة وتفضيل وخصوصية من جهة أخرى، ويلاحظ أيضا أن الثعالبي أثناء سرد بعض نماذج التوقيعات يلمح إلى بعض خصائص التوقيع متمثلة في الإيجاز والبلاغة ومن ذلك ما يقوله في الفضل بن سهل: «من أحسن توقيعاته الأمور بتمامها، والأعمال بخواتمها، والصنائع باستدامتها»[3]، ويقول عن الحسن بن سهل[4]: «من أحسن توقيعاته كتب رجل يتوسل بسالف إحسانه فوقع مرحبا بمن توسل إلينا بنا»[5]، ويقول في محمد بن يزداد: «من توقيعاته البارعة أبواب الملوك معادن الحاجات ومواطن الطلبات وليس لاستنجاحها واستنجازها كالصبر والملازمة والمغاداة والمراوحة»[6]

فعبارات الثعالبي في التعليق على مختلف التوقيعات على الرغم من اقتضابها وإيجازها الشديد تحمل في حد ذاتها حكما نقديا على تلك التوقيعات وإن كان هذا الحكم يفتقر إلى التعليل[7] .

ب . تحفة الوزراء :

أشار الثعالبي إلى التوقيعات في هذا الكتاب من خلال عنوان فرعي من فصل سماه من تواقيع الوزراء وفصولهم ، ويغلب عليها أن معظمها للوزراء العباسين أمثال الصاحب بن عباد[8] ويحي بن

---

(1) الثعالبي، خاص الخاص ، ص 91 ، ينظر جمهرة رسائل العرب، مج4 ، ص398 (يا هذا .....حتى أمللت فاستصغر)

(2) المصدر نفسه، ص 93

(3) الثعالبي، خاص الخاص، ص91

(2) أصله من سرخس، ولد سنة 166هـ ، اتصل بالمأمون فاتخذه وزيرا له وتزوج ابنته فازدادت مكانته عند المأمون ، اشتهر الحسن بذكائه وأدبه ، وتوفي سنة 236هـ (تاريخ بغداد،مج7، ص319).

(5) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص91 ، ينظر, جمهرة رسائل العرب ، مج4 ، ص390

(6) المصدر نفسه ، ص 91، ينظر، جمهرة رسائل العرب ، مج4 ، ص397

(7) ينظر، مصطفى البشير قط ، مفهوم النثر الفني ، وأجناسه في النقد العربي القديم,دار اليازودي الأردن عمان، (د.ط)2009م، ص128

(6) هو أبو القاسم بن إسماعيل بن أبي الحسن عباد بن العباس،أخذ الأدب عن أبي الحسن أحمد بن فارس اللغوي، وهو أول من لقب بالصاحب من الوزراء، كان حسن الأجوبة سريعها من مؤلفاته الكافي في الرسائل، كان مولده 326هـ باصطخر وتوفي بالري سنة 385هـ (وفيات الأعيان ، مج1، ص231 - 288)

خالد وجعفر بن يحي والفضل بن سهل والخليفة المأمون وهي تواقيع قليلة مقارنة بكتاب خاص الخاص ؛ ومن أبرز تلك التوقيعات ما وقع به الصاحب بن عباد لعامل متعطل تضمن استطلاع رأيه في تصريفه «التصرف لا يلتمس بالتكلف، إن احتجنا إليك صرفناك وإن استغنينا عنك أحسنا إليك وصرفناك»[1] وكذلك ما كتبه يحي بن خالد في الاستبطاء والاقتضاء، ولم نسمع بأوجز منه «في شكر ما تقدم من إحسانك، شاغل عن استبطاء ما تأخر منه»[2]، ونلاحظ من خلال هذا التوقيع حكم نقدي يفتقر إلى التعليل في قوله" ولم نسمع بأوجز منه" وكذلك ما وقعه الفضل بن سهل في رقعة خائف من عاقبة أمر يتولاه «ليس عليك بأس مالم تكن منك يأس»[3]، ولم نجد توقيعا للخلفاء إلا ما وقعه المأمون فيما كتب له صاحب أرمينية أن الجند قد استطالوا عليه وشغبوا في طلب أرزاقهم حتى كسروا أقفال بيت المال فانتهبوه «اعتزل عملنا فلو عدلت لم يشغبوا، ولو قويت لم ينهبوا»[4] .

ج . **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر :**

ذكر الثعالبي التوقيعات في الجزء الثالث من الباب الثالث من كتابه في ذكر الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد" لمع من أخباره ونوادر توقيعاته" ولم يحتف الثعالبي بشخصية أخرى من غير ابن عباد ويظهر هذا من خلال التقارب الزمني ومن تلك التوقيعات ما كتب إليه بعض العلوية يخبره بأنه رزق مولودا ويسأله أن يسميه ويكنيه فوقع في رقعته «أسعدك الله بالفارس الجيد والطالع السعيد، فقد والله ملأ العين قرة والنفس مسرة مستقرة والاسم علي ليعلي الله ذكره والكنية أبو الحسن ليحسن الله أمره، فإني أرجو له فضل جده وسعادة جده وقد بعثت لتعويذه دينارا من مائة مثقال، قصدت به مقصد الفال رجاء أن يعيش مائة عام، ويخلص خلاص الذهب الإبريز من نوب الأيام والسلام»[5]، فالصاحب بن عباد جنح في توقيعه إلى الطول حتى خرج به عن معايير البلاغة والإيجاز .

(1)الثعالبي ، تحفة الوزراء ، تح سعد أبودية ، دار البشير عمان، ط1 (1413 هـ – 1994 م) ، ص 97
(2) المصدر نفسه ، ص 98
(3) المصدر نفسه ، ص 99
(4) المصدر نفسه ، ص 99
(5) الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، مج 3 ، ص 232

إن المتأمل لتلك التوقيعات التي أوردها الثعالبي في مؤلفاته وبخاصة كتابه "خاص الخاص" يجده مفيدا كثيرا من التوقيعات التي حشدها "ابن عبد ربه" وإن يكن تجاوزها كما في إيراده نماذج من توقيعات نفر من الوزراء العباسيين اطّرح ابن عبد ربه ذكرهم أمثال عبد الله بن طاهر، وعبد الله بن المعتز، ويحي بن خالد، والفيض بن أبي صالح، ومحمد بن يزداد وابنه عبد الله، وابن العميد والصاحب بن عباد ويغلب على هذه التوقيعات معالجة مشاكل الرعية من نصح وإقامة عدل والعفو عن المذنبين وتلبية نداء المحتاجين وينضاف إلى هذا أنها صادرة من علية القوم كما يشير إلى ذلك الثعالبي بنفسه بتسميتها أجناس توقيعات الوزراء والسادة الكبراء، بل أننا لنجده يثبت أول توقيع للخليفة أبي بكر الصديق خلافا لما ذهب إليه صاحب العقد الفريد حيث عزاه لعمر بن الخطاب وهذا التباين الكبير بين الرجلين يفضي إلى حقيقية أن الثعالبي قد استدرك على صاحب العقد ووسع من التحديد الزماني لاستهلال التوقيع .

ومن خلال التواقيع التي أثبتها الثعالبي في كتبه الثلاثة فإن كتابه خاص الخاص يعد الكتاب المتفرد الذي حظي بأكبر قدرا منها

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني :التوقيعات ومصادر التنظير لها.

مصادر التنظير:

ونعني بمصادر التنظير تلك المدونات النقدية التي أرادت التأسيس لفنون النثر عموما وبخاصة فن الكتابة الذي أجمع أغلب دارسي الأدب العربي القديم على أن النثر العربي القديم لم يحظ بالعناية والاهتمام اللذين يستحقهما من قبل النقاد العرب القدامى، خاصة إذا ما قورن بالشعر، وأن ما أورده النقاد القدامى في كتبهم من إشارات وملاحظات نقدية متناثرة حول النثر لم تأت قصدا وإنما جاءت عرضا في سياق نقدهم للشعر، فإدراك بعض النقاد القدامى المتأخرين للغبن الذي لحق بالنثر العربي على أيدي النقاد الذين سبقوهم، حالوا استدراك ذلك بتخصيص مؤلفات مستقلة لدراسة النثر ونقده والتنظير له، ومن أهم تلك المؤلفات التي حاولت التنظير للنثر:

1- إحكام صنعة الكلام للكلاعي (ت545هـ)

يعد أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي من النقاد الأندلسيين الذين اهتموا بنقد النثر حيث ألف كتابا كاملا في هذا الجانب سمّاه "إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه" في المشرق والأندلس وهو بحق كتاب قيم يمثل اتجاها واضحا في النقد الأندلسي كما يبدو من خلال عنوانه دليل في صناعة الكتابة وآدابها لاحق بالكتب التي حاولت تقعيد البيان وتخليصه من الاضطراب مثل الصناعتين لأبي هلال العسكري,فخصص كتابه لدراسة قواعد الإبداع النثري وشرح فنونه كالخطابة والمقامة والرسائل والتوقيعات وضروب صناعته كالسجع والبيان والإيجاز لأنه أصل الكلام الذي تولد عنه النظم.

يتألف كتاب الإحكام من مقدمة وبابين أشار الكلاعي في مقدمته إلى السبب الذي دعاه إلى تأليف هذا الكتاب وهو الرد على التهم التي وجهها إليه شخص مجهول لم يسمه المؤلف في أربعة مجالس

جمعتهما وتتلخص هذه التهم فيما يلي[1]:

- أن الكلاعي يحتكم في رسائله إلى الغريب
- أنه لا يجيد كتابة الرسائل السلطانية
- وأنه لا يستطيع مجاراة أبي العلاء المعري في تواليفه البديعية
- وأنه لا يقابل في ترسله كل طبقة وفرقة بما يشاكلها من اللفظ والمعنى

أما الباب الأول فقد خصصه للحديث عن الكتابة السلطانية وآدابها وما يتعلق بها وبأسبابها ومن أبرز تلك الآداب تطهير النفس من الدنس واللسان عن الغيبة وأن يكون الكاتب بعيد الهمة نزيه النفس حسن الهيئة، أما من أهم أسبابها، أن يجيد الكاتب قلمه فهو ترجمانه ولسانه وأن يستجيد سكينه فهو طبيب أقلامه، كما عليه أن ينتخب جلساءه وأصحابه[2]، ولعل هدف الكلاعي الرئيس من كتابة هذا الباب حول الرسائل الديوانية هو دفع تهمة تخلفه في كتابة الرسائل الديوانية و يختم هذا الفصل بمجموعة من النصائح التي ينبغي على الكاتب الديواني مراعاتها، أما الباب الثاني الذي يشكل معظم هذا الكتاب فقد خصصه لبحث الأجناس النثرية التي كتبت قي الأدب العربي حتى عصره، و قدم فيه دراسة تفصيلية حصر فيها هذه الأجناس وأساليبها حصرا دقيقا لم يسبق إليه من قبل ثم أردف ذلك بكتابة فصل قصير حول السجع.

تحدث الكلاعي عن أجناس النثر العربي وحصرها في ثمانية أجناس رئيسة«وجعلت أبحث عن ضروب الكلام فوجدتها على فصول وأقسام منها: الترسيل ومنها التوقيع ومنها الخطبة ومنها الحكم المرتجلة والأمثال المرسلة ومنها الموزى والمعمى ومنها المقامات والحكايات ومنها التوثيق ومنها التأليف»[3] والذي يخص دراستنا هو نظرته إلى التوقيعات.

نظر الكلاعي إلى التوقيع على أنه جنس من أجناس النثر معرفا به شارحا لخصائصه ممثلا بقوله: «وهذا النوع من الكلام مما عدلوا فيه عن التطويل والتكرار إلى الإيجاز والاختصار»[4] أما أنواعه

(1) ينظر، الكلاعي ، إحكام صنعة الكلام ، ص 22 – 31
(2) المصدر نفسه ، ص 39 – 44
(3)الكلاعي ،إحكام صنعة الكلام ، ص95
(4)المصدر نفسه ، ص160

فهي التوقيع بالكلمة الواحدة وبالحرف الواحد وبالآية وبالبيت من الشعر[1]، فترتيب التوقيع في الأجناس النثرية عنده يحتل المرتبة الثانية بعد الترسل وهذا يعود لأهميته المستمدة من فاعليته ووظفته النفعية أو الجمالية، فالتوقيع عند الكلاعي ذو وظيفة جمالية تكمن في التأثير، كما أن الترسيل يكمن في وظيفته الجمالية في الإقناع الكتابي, وتقسيم الكلاعي للتوقيع كان متعدد المعايير، فالتوقيع بالكلمة الواحدة والتوقيع بالحرف مبنيان على معيار الإيجاز أما التوقيع بالآية والتوقيع بالشعر فمبنيان على معيار النص الموقع به، ويتضح هذا التعدد أيضا في جنس الحكم والأمثال حين قسمها ثلاث مرات بناء على معايير مختلفة؛ فالأول بحسب السياق الذي وردت فيه«الحكم والأمثال ما روى بأثناء الخطب والرسائل ومنها ما يأتي جوابا مرتجلا، فمن ذلك أنه أتى رجل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله علمني كلمات أعيش بهن ولا تكثر علي فأنسى فقال رسول الله : لا تغضب»[2] أما الثاني فبحسب التزامها السجع من عدمه«حكم وأمثال عقدت بالسجع ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : إنكم لتكثرون عند الجزع، وتقلون عند الطمع»[3]، « وأخرى لم تعقد به، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : مطل الغني ظلم »[4] أما الثالث بحسب طريقة توظيفها«ما لم يعدل به في الغالب عن موضوعه كقولهم الخيرة فيما يصنع الله»[5]، ومنها«ما يعدل البتة عن بعض وجوهه، كقول عمر رضي الله عنه : كل الناس خير منك يا عمر»[6] لأنه ـ رضي الله عنه ـ لم يكن أحد خيرا منه، ولكن يتمثل بقوله من هو أقل خيرا من غيره, ومنها ما يعدل به في الغالب عن موضوعه، كقول الشاعر:

ألفى أباه بذاك الكسب يكتسب [7]

فهذا القول في صفة صائد، ولكنهم قد استعملوه فيمن ورث مجده من آبائه، فالكلاعي من خلال كتابه أولى عناية خاصة لفن النثر العربي القديم وفنونه ولنقد النثر بشكل خاص وما تفضيله

(1)ينظر الكلاعي ،إحكام صنعة الكلام، ص160–163
(2)الكلاعي، المصدر نفسه، ص 181
(3) الكلاعي ، إحكام صنعة الكلام ، ص 183
(4)المصدر نفسه ، ص182
(5) المصدر نفسه ، ص184
(6) المصدر نفسه ، ص 184 - 185
(7) المصدر نفسه، ص 185

المنثور على المنظوم إلا دليل على ذلك وفي هذا يقول: «إنما خصصت المنثور لأنه الأصل الذي أمن العلماء لامتزاجه بطبائعهم ذهاب اسمه فأغفلوه, وضمن الفصحاء لغلبته على أذهانهم بقاء وسمه فأهملوه ولم يحكموا قوانينه ولا حصروا أفانينه»[1] ثم شرع في بيان مثالب الشعر التي تحط من قيمته ومنزلته ومنها فإن الوزن الذي رأى فيه أنصار الشعر ميزته الكبرى يراه الكلاعي من المعايب«لأن الوزن داع للترنم، والترنم من باب الغناء، وقد قال بعضهم الغناء رقية الزنا»[2]، على حين أن«الكتابة فبعيدة عن هذا كله»[3]، وتبعه في ذلك ثلة من النقاد أمثال "ابن طراره" و "ابن حيان التوحيدي"و "المرزوقي" و "الثعالبي" و "ابن الأثير" و "القلقشندي" .

لقد اهتم الكلاعي كثيرا بالبعد التنظيري والتطبيقي والتمثيلي لكتابه، وأورد بعض النصوص النثرية الجيدة التي تبرز بوضوح تصوراته النظرية حول تصنيف الأجناس النثرية والتعريف بها وذلك لأن هدفه كما يقرره إنما هو« التنظير والتمثيل»[4] لا الاستقصاء، فالبعد التطبيقي يقوي البعد التنظيري في هذه الدراسة ويوضحه لأن معرفتنا بالأجناس الأدبية لابد أن تكون نابعة من تعاملنا الجاد مع النصوص، وما يميز النصوص التي استشهد بها الكلاعي هو أنها تعكس واقع الأجناس النثرية التي حددها تاريخيا وإقليميا، فمن ناحية نجد أن هذه النصوص تغطي فترة زمنية تمتد من ظهور الإسلام إلى عصر المؤلف، ومن ناحية أخرى نجد أنها تمثل أبرز كتاب هذه الأجناس النثرية في مشرق العالم الإسلامي ومغربه خاصة الأندلس .

لقد انتهج المؤلف منهجا جديدا لدراسة النثر في أدبنا العربي، إذ لم يدرسه ضمن القضايا البلاغية التقليدية كالاستعارة والتشبيه والمحسنات البديعية الأخرى التي سيطرت على دراسات النقاد السابقين وهذا يدل على«إيلاء الأهمية للمكتوب مما يوحي بالخروج عن التصور البلاغي الشفوي إلى تصور يأخذ بعين الاعتبار بلاغة المكتوب والمخطوط»[5]. وفي هذا يقول الكلاعي: «وتأملت أدام الله توفيقك النثر فوجدت فيه من أنواع البديع ما في النظم، فأغفلت ذكرها في هذا الباب لأن كثيرا من

(1) الكلاعي، إحكام صنعة الكلام ، ص31
(2) المصدر نفسه، ص 38
(3) المصدر نفسه، ص39
(4) المصدر نفسه، ص 116
(5) رشيدة عابد، بلاغة النثر وضروب الكلام في التراث العربي قراءة في كتاب إحكام صنعة الكلام، مجلة الخطاب ،ع8 ، ص91

العلماء قد عنوا بهذا الباب»[1]، وبهذا رسم لنفسه منهجا جديدا«يقوم أساسا على دراسة النثر من خلال دراسة الأجناس أو الفنون النثرية التي كتبت في الأدب العربي، وهو بذلك يعتبر أول ناقد عربي فيما يعلم يهتم بهذا النوع من النقد أعني (النقد الأجناسي)»[2]

ومع هذا كله يبقى كتاب إحكام صنعة الكلام حبيس التهميش وعدم الاعتناء به من قبل الدارسين المحدثين حسب اطلاعنا، هذا إذا استثنينا العرض الشامل الذي قدمه محمد رضوان الداية لمحتويات الإحكام في دراسته للنقد الأدبي في الأندلس، إلا أن دراسة الكلاعي للأجناس النثرية في الأدب العربي القديم تعد الجانب الذي انفرد به وفي هذا يقول شوقي ضيف : «وهي أول مرة يتحدث فيها ناقد بإفاضة عن فنون النثر المختلفة»[3]، أما إحسان عباس فيرى أن«وقفة ابن عبد الغفور عند أنواع النثر تعد هامة في تاريخ النثر العربي لأنه استطاع من موقفه في الزمان أن يحدد الأنواع بدقة ووضوح، وأن ينصرف عن التحدث في أنواع البديع لأن غيره قد أشبعها بحثا وانصرف هو إلى ابتكار مصطلح جديد لضروب النثر» [4]، فأبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي يمثل وعيا نقديا بارزا بين أقرانه في التأليف في نقد النثر .

2-المقدمة لابن خلدون (ت808هـ).

تحدث ابن خلدون عن التوقيعات في الباب الثالث (الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية) من الفصل الرابع والثلاثين (في مراتب الملك والسلطان وألقابها) بوصفه ناقدا ومنظرا ومصنفا إذ يتضح ذلك أولا من خلال تعريفه للتوقيع إذ يقول «ومن خطط الكتابة التوقيع، وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله ويوقع على القصص المرفوعة إليه أحكامها والفصل فيها، ملقاة على السلطان بأوجز لفظ وأبلغه، فإما أن تصدر كذلك، وإما أن يحنو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع إلى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعه »[5]، فتحديده لمفهوم التوقيع جاء شاملا مستوف لكل جوانب التوقيع من حيث

(1)الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، ص 95

(2) صالح بن معيض الغامدي، منحى الكلاعي في نقد النثر، مجلة جامعة الملك سعود (د.ط) ، (1415 هـ – 1995 م) ، مج 7 ، ص 389

(3) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي, عصر الدول والإمارات الأندلس، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)، 1981، ص511

(4) إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق ، ط1 (2011م) ، ص518 .

(5) ابن خلدون، المقدمة ، ص 247.

حقيقته ثم من يتولاه ثم تحديد طبيعته (دلالة الفصل والقطع في الأمر المرفوع) ثم تحديد شروط الموقع التي لخصها في كلمة جامعة (عارضة البلاغة)، وبعد هذا التعريف المفصل يعود إلى شروط الموقع بأكثر دقة وعرض إذ يقول:«واعلم أن صاحب التوقيع لابد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة، فإنه معرض للنظر في أصول العلم، لما يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ومع ما يضطر إليه في الترسل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها»[1]، فنص ابن خلدون أجمل شروط الموقع من كونه من أرفع الطبقات، أهل مروءة وحشمة، صاحب عمل وبلاغة، عالي الأخلاق، متحل بالفضائل .

فابن خلدون في مقدمته كان منظرا ومقعدا لهذا الفن والعلم في آن، بدءا بتحديد مفهوم التوقيع إلى أبرز شروط الموقع، ولم يثبت في ذلك كله نصوصا من التوقيعات إلا ما جاء في الإشادة بتوقيعات جعفر بن يحي البرمكي«فكانت توقيعاته يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها»[2]

3-صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي (ت821هـ).

يعد كتاب صبح الأعشى أضخم موسوعة وصلتنا في أدب الإنشاء ومراسلات الملوك، وتقع في أربعة عشر مجلدا وقد قسمها المؤلف إلى عشر مقالات سوى المقدمة والخاتمة، حيث جعل المقالة الأولى في الكتابة وتاريخ ديوان الإنشاء والثانية في الجغرافيا بمختلف فروعها والثالثة في ذكر الكنى والألقاب ومقادير قطع الورق وما يناسبها من الأقلام والبياض الذي يراعيه الكاتب والرابعة . وهي أهم مقالات الكتاب وأضخمها، إذ تضم أمورا تتعلق بالمكاتبات بالإضافة إلى مصطلح المكاتبات الدائرة بين ملوك الشرق والغرب منذ بداية الإسلام، وفي الخامسة عرض للبيعات والعهود والكثير من النصوص، وفي السادسة أعتنى بالوصايا الدينية وتصاريح الخدمة السلطانية وفي السابعة عن الاقطاعات وأحكامها ونماذج منها وفي الثامنة عن الإيمان وأنواعها وفي التاسعة

(1 ابن خلدون، المقدمة ، ص 247

(2) ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر بيروت لبنان، (د.ط)،(1428هـ – 2007م)، ص254 .م

تحدث عن عهود الأمان وكيف تعقد لأهل مختلف الملل والهدن وأنواعها وصيغها وخص العاشرة بفنون الكتابة التي لا علاقة لها بالإنشاء كالبريد وتاريخه وغيره .

فضل القلقشندي النثر على الشعر وساق له الحجة تلو الحجة نحو قوله : «النثر أرفع منه درجة وأعلى رتبة وأشرف مقاما وأحسن نظاما»[1] ثم لا غرابة من هذا في كون القلقشندي يفضل النثر على الشعر إذ أنه كاتب ديوان الإنشاء الذي يعتمد فيه على النثر دون الشعر من جهة وحبه للكتابة من جهة أخرى [2]، فالملاحظ لكتاب صبح الأعشى يجده مليئا بالنماذج النثرية و خاصة ما كان ديوانيا منها وبهذا، يشكل كنزا ثمينا من كنوز نماذج الكتابة ومنجما غنيا من مناجم الوثائق العربية على ممر العصور حتى عصر الكاتب، ولأن التوقيعات ضرب من الكتابة متصل بديوان الإنشاء، فقد اهتم القلقشندي بأدب التوقيعات عندما تحدث عن ديوان الإنشاء وبالأخص في اختصاصات كاتب الديوان حيث يقول: «فيما يتصرف فيه صاحب هذا الديوان بتدبيره، ويصرفه بقلمه ومتعلق ذلك اثنا عشر أمرا التوقيع و التعين»[3] وبعد هذا التعيين لمهام كاتب الديوان شرع يعرف بالتوقيع من حيث مفهومه وطبيعة هذا المنصب إذ يقول«التوقيع أمر جليل ومنصب حفيل إذ هو سبيل الإطلاق والمنع والوصل والقطع, والولاية والعزل إلى غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السنية» [4] ومن خلال هذا الكلام المنصب على مهنة التوقيع كان حتما على من يتولاه في أول الأمر أعلى سلطة في الدولة ليؤول الأمر إلى كاتبه وبهذا فكاتب الخليفة هو السلطان في غياب الخليفة التي تحول إليه وظيفة التوقيع المتمثلة في المنع والوصل والقطع والعزل، ولم يتوقف عند حدود هذا بل راح يعدد صفات الكاتب بصفة عامة حيث جعلها في عشر صفات؛ الذكورة، التكليف والاستقامة والبلاغة والعقل والهمة وشرف النفس والعلم والكفاءة والحرية[5]، و تطرق قبل هذا وذاك

(1) القلقشندي ، صبح الأعشى ، مج1، ص58

(2) ينظر مصطفى الشكعة ، الأصول الأدبية في صبح الأعشى ، دار الكتاب المصري القاهرة ، ط2 (1414هـ –1993 م) ، ص141

(3) القلقشندي ، صبح الأعشى، مج1 ,ص110 ، وتلك الأمور الإثنا عشر : التوقيع والتعين ، نظره في الكتب الواردة عليه , نظره فيما يتعلق بردّه الأجوبة عن الكتب الواردة على لسانه ، نظره فيما تتفاوت به المراتب في المكاتبات والولايات ، نظره فيما يكتب من ديوانه وتصفحه قبل إخراجه من الديوان نظره في أمر البريد ومتعلقاته ، نظره في أمر أبراج الحمام ومتعلقاته، نظره في أمور الفداوية ، نظره في أمر العيون والجواسيس ، نظره في أمور القصاد الذين يسافرون بالملطفات من الكتب ، نظره في أمر المناور والمحرقات ، نظره في الأمور العامة مما يعود نفعه على السلطان والمملكة

(4) المصدر نفسه ، مج 1 ، ص 110 – 111.

(5) ينظر ،القلقشندي، صبح الأعشى ،مج 1، ص61–67 .

إلى أصل التوقيع في اللغة مستفيدا من العلماء السابقين كابن الحاجب النعمان يقول: «قال ابن حاجب النعمان في ذخيرة الكتاب :ومعناه في كلام العرب التأثير القليل الخفيف»[1].

لقد أثبت القلقشندى في كامل كتابه نصوصا للتوقيعات في أماكن متفرقة من كتابه ناصا على أن التواقيع على اختلافها لا تخرج عن أربع طبقات ؛ فالأولى ما يفتتح بخطبة مفتتحة بالحمد لله والثانية ما يفتتح بلفظ أما بعد حمد الله والثالثة ما يفتتح بلفظ رسم بالأمر الشريف والرابعة ما خص بالتواقيع الصغار وهي لأصغر ما يكون من الولايات كمن نظر وقف صغير، وما يلاحظ عليه هو اهتمامه بالجانب الشكلي لهذه الطبقات الأربع للتواقيع من حيث كتابتها وكيف تفتتح حسب كل طبقة موجه لها هذا التوقيع[2] ثم أن أغلبية هذه التواقيع يغلب عليها الطول ومخالفتها لشروط الإيجاز والبلاغة حتى أن الواحد منها يصل إلى خمس صفحات ولاسيما تلك التي تختص بتواقيع الوظائف الدينية[3]، وهذا يعني تطور دلالة هذا الفن وتحولها إلى ما يراد به في مراحل متأخرة المراسيم السلطانية وربما كان ذلك في عصر الكاتب .

لقد كانت دراسة القلقشندي لفن التوقيعات دراسة تنظرية مقتضبة محدودة تنحصر في تعريف التوقيع وأهم شروط وصفات كاتب التوقيع دونما دراسة أدبية أو فنية يبين فيها قيمة وجمال التوقيعات ماعدا ربطها بفضيلة الكتابة وأهميتها في بلاط السلاطين والأمراء والخلفاء، ثم ان معظم الدراسات التي بحثت في كتاب صبح الأعشى دراسة وصفية تاريخية لا تتجاوز حدود النظر ومن أبرز تلك الدراسات التي وقفنا عليها" القلقشندى في كتابه صبح الأعشى" لعبد اللطيف حمزة [4]، و "القلقشندي وكتابه صبح الأعشى" لعلي خذري[5] و"الأصول الأدبية في صبح الأعشى" لمصطفى الشكعة[6] ، ومع هذا كله يبقى كتاب صبح الأعشى طي التهميش والنسيان لدى الدارسين والنقاد وفي هذا يقول

(1) القلقشندي، صبح الأعشى ،مج 1، ص52 .
(2) ينظر ،القلقشندي ،المصدر نفسه، مج11،ص114–127 .
(3) ينظر ،القلقشندي ،المصدر نفسه، مج12،ص38 .
(4) عبد اللطيف حمزة، القلقشندي في كتابه صبح الأعشى، وهي دراسة لا تتجاوز العرض وتحليل بعض فصول من الكتاب ولم نجد فيها إشارة لفن التوقيعات
(5) علي خذري، القلقشندي وكتابه صبح الأعشى، معهد الآداب واللغة العربية، قسنطينة، (د.ط) (د.ت)، وهي رسالة ماجستير نوقشت في معهد الآداب واللغة العربية بجامعة قسنطينة سنة 1983 وهي دراسة وصفية تاريخيه تعرف بكتاب صبح الأعشى
(6) مصطفى الشكعة ، الأصول الأدبية في صبح الأعشى ، دار الكتاب المصري القاهرة، ط2 (1414هـ –1993 م)، وهي دراسة أدبية نقدية لكتاب صبح الأعشى ، وقد أفرد في كتابه فصلا لأهم السمات البلاغية والنقدية إلا أنها لم تشر إلى فن التوقيعات

مصطفى الشكعة : « إن المشكلة الكبرى في هذا السبيل هي أن هذه الكنوز منتثرة بغير معالم تحتاج إلى غوص شديد ومتابعة صابرة لاقتناصها والحصول عليها»[1]

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) مصطفى الشكعة ، الأصول الأدبية في صبح الأعشى ، ص 15

المبحث الثالث : الذين أشاروا إلى التوقيعات إشارة عابرة :

لقد وجدت ملاحظات نقدية في مصادر متعددة لمادة التوقيعات وهذا راجع إلى أن مؤلفي هذه الكتب لم يهتموا بالتوقيعات اهتماما يوصلها إلى مصاف الفنون النثرية الأخراة كالرسالة والخطابة إلا لماما ومن تلك المصادر :

1-البيان والتبيين للجاحظ (ت255هـ).

أشار الجاحظ إشارة مقتضبة إلى فن التوقيعات في "باب ذكر ناس من البلغاء والخطباء والأنبياء والفقهاء والأمراء ممن كان لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل" من الجزء الأول من كتابه إذ يقول : «وخبرني جعفر بن سعيد رضيع أيوب بن جعفر وحاجبه قال ذكرت لعمرو بن مسعدة توقيعات بن يحي فقال :قد قرأت لأم جعفر توقيعات في حواشي الكتب وأسا فلها فوجدتها أجود اختصارا وأجمع للمعاني »[1] .

أورد الجاحظ هذه الجملة بعد أن أثنى على جعفر بأنه أنطق الناس, فقد جمع الجزالة والحلاوة وأنه لا يتحس ولا يتوقف ولا يتلجلج ولا يتنحنح في كلامه, فهذه أوصاف تجمع لجعفر بأنه بليغ وأفصح الناس ليفضي إلى هذه الحقيقة بأن أم جعفر في توقيعاتها هي أجود وأجمع من توقيعات جعفر، فالمفاضلة هنا قائمة على أساس فني يرجع إلى بنية التوقيعات في حد ذاتها إذ يفضل عمرو بن مسعدة توقيعات أم جعفر على توقيعات جعفر بن يحي بسبب شدة تركزها وكثافتها فهي جيدة الإيجاز جامعة للمعاني ؛أي تحتوي المعاني الكبيرة في اللفظ القليل[2] وهنا فالجاحظ أدرج التوقيعات في باب البلاغة التي هي الإيجاز أو نقول بالأخص فالجاحظ درس التوقيعات من الجهتين المعاني والبيان .

(1) الجاحظ ، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة ، ط7(1418هـ -1998م)، مج1،ص106-107

(2) ينظر،مصطفى البشير قط، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم ، ص129.

2 . الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري (ت 395 هـ)

يعد كتاب الصناعتين من الكتب التي اهتمت بالحدود الفاصلة بين النظم والنثر أو التقعيد لكل من الفنين تحت مسمى البلاغة، إذ هي النسق الكلي للكلام العربي, وبهذا فأبو هلال العسكري يقسم الكلام إلى ثلاثة أقسام فيقول: «أجناس الكلام المنظوم ثلاثة الرسائل والخطب والشعر، وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب»[1]، ثم راح يفصل في كل جنس محددا خصائصه وسماته ولم يشر في كل هذا إلى التوقيع الذي يعد طرفا من الرسالة في أقل تقدير إلا ما جاء في الفصل الثاني من الباب الثالث "فيما يحتاج إليه الكاتب إلى ارتسامه وامتثاله في مكاتباته" حيث ذكر خاصيتين من خصائص التوقيع وهي اختصار اللفظ وتأكيد المعنى وفي هذا يقول: «واعلم أن المعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمور والنهي سبيلها أن تؤكد غاية التوكيد بجهة كيفية نظم الكلام لا بجهة كثرة اللفظ لأن حكم ما ينفذ عن السلطان في كتبه شبيه بحكم توقيعاته من اختصار اللفظ وتأكيد المعنى»[2]، كما أننا نجد أن أبا هلال العسكري يطلق حكما نقديا على بعض التوقيعات واصفا إياها بأنها سهلة صادرة عن طبع لا عن تكلف حيث يقول: «ومن الكلام المطبوع السهل ما وقع به علي بن عيسى:قد بلغتك أقصى طلبتك, وأنلتك غاية بغيتك، وأنت مع ذلك تشقل كثيري لك، وتستقبح حسني فيك»[3]

3. البرهان في وجوه البيان (نقد النثر) لابن وهب .

خصص ابن وهب جزءا من أحد أبواب كتابه للحديث عن الأجناس النثرية يقول فيه : «وليس يخلو المنثور من أن يكون خطابة أو ترسلا أو احتجاجا أو حديثا، ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه»[4] ثم أخذ في التعريف بهذه الأجناس الرئيسة والتحدث عن بعض تقاليدها وشروطها ووظائفها مستشهدا في كل ذلك ببعض النصوص النثرية المختارة، مسقطا من تصنيفه للمنثور التوقيعات والوصايا التي أشار إليها عرضا في كتابه عندما قال : «وإن رمنا أن نأتي بكل

(1) أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر ، مطبعة محمود بك ، ط1 (1319 ه) ، ص120
(2) المصدر نفسه ، ص 117
(3) أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر ، تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي، ط2 ،(د.ت) ، ص68
(4) قدامة بن جعفر، نقد النثر (المنسوب إليه) ، تح طه حسين بك وعبد الحميد العبادي ، مطبعة الأميرية ، القاهرة، (د.ط)، (1941 م) ، ص 105

ما سمعنا في هذا الباب من مختصر الدعاء و الوصايا وقصير التوقيعات والخطب طال علينا وشغلنا عما إليه أجرينا»[1]، وأشار بذلك إلى بعض النماذج من التوقيعات دون التعريف بها وذكر خصائصها وشروطها كما فعل في الأجناس الأخرى, ومن أبرز تلك التوقيعات التي أوردها ما وقع به "أبو صالح بن يزداد"[2] إلى رجل أذنب«قد جاوزت عنك فإن عدت أعدت إليك ما صرفته عنك»[3]، ووقع يحي بن خالد[4] في نكبته إلى رجل سأله عن حاله«أحسن الناس حالا في النعمة من ارتبط مقيمها بالشكر واسترجع ماضيها بالصبر»[5] وبالرغم من دراسة ابن وهب للفنون النثرية إلا أن حصره لهذه الفنون في أربعة لا يعكس الواقع الأدبي للأجناس النثرية التي كتبت قي الأدب العربي القديم بقدر ما يعكس التوجه الفكري لابن وهب الكاتب الفقيه المتكلم[6]

4 . الاقتضاب في شرح أدب الكتاب للبطليوسي[7] (ت 521 هـ)

لقد تطرق البطليوسي إلى التوقيع في" باب ذكر جملة من آلات الكتاب لا غنى لهم عن معرفتها" ولقد ذكر في هذا الباب كما يشير عنوانه إلى وسائل يحتاجها الكتاب كالدواة والأقلام إلا أن التوقيع ليس وسيلة بقدر ما هو فن يتمرس به الكاتب، ولا ندري سبب إدراج البطليوسي التوقيع ضمن هذا الباب، فإشارته إلى التوقيع تضمنت التعريف به وبمن يتولاه وبعض خصائص التوقيعات، ضاربا مثالا بتوقيع جعفر بن يحي البرمكي إذ يقول«أما التوقيع فإن العادة جرت أن يستعمل في كل كتاب يكتبه الملك، أومن له أمر ونهي في أسفل الكتاب المرفوع إليه، أو على ظهره، أو في عرضه بإيجاب ما يسأل أو منعه، كقول الملك : ينفذ هذا إن شاء الله، أو هذا صحيح، وكما يكتب الملك على ظهر الكتاب لترد على هذا ظلامته أو لينظر في خبر هذا أو نحو ذلك»[8] وما يلاحظ على

---

(1) قدامة بن جعفر ، نقد النثر ، ص 116

(2) هو أبو صالح محمد بن يزداد كان وزير الخليفة العباسي المستعن بالله ، توفي في رجب سنة 261 هـ ، (سير أعلام النبلاء، مج 12، ص 339)

(3) قدامة بن جعفر ، نقد النثر ، ص115

(3)هو يحي بن خالد البرمكي ولد سنة 120هـ ، مؤدب الرشيد قبل الخلافة ووزيره المصرف لشؤون الدولة، عرف يحي البرمكي برهافة حسه وقوة بيانه، مات سنة190 في سجن الرشيد (تاريخ البغدادي، مج14، ص128).

(5) قدامة بن جعفر ، نقد النثر ، ص116

(6) ينظر، صالح بن معيض الغامدي ، منحى الكلاعي في نقد النثر ، مجلة جامعة الملك سعود ، ص 393

(7) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد العلامة النحوي اللغوي صاحب التصانيف، شرح الموطأ، وكتاب الأسباب الموجبة لاختلاف الائمة ، توفي في رجب سنة 521 هـ(سير أعلام النبلاء، مج19 ، ص533)

(8)البطليوسي ، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، ص 101

البطليوسي أنه أعادنا إلى الجذر اللغوي للتوقيع ذاكرا أهم معانيه، وفي هذا يقول : «وقال الخليل التوقيع في الكتاب إلحاق فيه بعد الفراغ واشتقاقه من قولهم وقعت الحديدة بالميقعة إذا ضربتها وحمار موقع الظهر إذا أصابته فيظهره دبرة و الوقيعة نقرة في صخرة يجتمع فيها الماء وجمعها وقائع»[1]، ومنه نقول أن البطليوسي أورد التوقيعات في كتابه بصفة مقتضبة تعين من يشتغل بهذه المهنة بالتعريف بهذا الفن .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) البطليوسي ، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، ص101

الفصل الثالث :

التوقيعات في المدونة النقدية الحديثة

المبحث الأول: قراءة في مصادر التوقيعات

المبحث الثاني :دراسات حول فن التوقيع .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: قراءة في مصادر التوقيعات

إن اهتمام النقاد بالتوقيعات لم يتوقف عند زمن معين, بل امتد متجاوزا الزمان والمكان ليصل إلى العصر الحديث جمعا وتحقيقا لهذه المادة الفنية والثرية في بلاغتها ولغتها؛ إلا أن هذا الاهتمام لم يكن كالرعيل الأول واسعا وشاملا بل يكاد يقف عند ثلة قليلة تكاد لا تتجاوز أصابع اليد، ومن أبرز تلك المدونات :

ـ جمهرة رسائل العرب (أحمد زكي صفوت):

يعد كتاب جمهرة رسائل العرب أهم مرجع حديث عني بتدوين التوقيعات بدءا من العصر الإسلامي إلى العصر العباسي وهو كتاب ضخم يقع في أربعة أجزاء، اهتم فيه صاحبه بتدوين أهم الرسائل التي تعاقبت في الزمان الواسع الممتد من صدر الإسلام إلى العصر الذهبي خاتما كل جزء بفصل أورد فيه أهم التوقيعات الخاصة بكل عصر .

لقد تضمن الجزء الأول قدرا يسيرا من توقيعات الخلفاء الراشدين بدءا من الخليفة أبي بكر الصديق إلى علي كرم الله وجهه، إذ أثبت لأبي بكر توقيعا واحدا وثلاثة لعمر واثنان لعثمان لتبلغ توقيعات علي ست توقيعات، ولقد اتسمت توقيعاتهم بالحكمة والنصح والإرشاد والتهديد والتوبيخ والوعيد ويظهر فيها بلاغة قائلها وتتميز بالجدة والتنوع لأنها صادرة عن أناس لهم إسهامات كثيرة في تثبيت أركان الدولة الإسلامية وصياغة مستقبلها ومن ذلك ما وقع به عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص يستأذنه في بناء دار الإمارة : «ابن ما يستر من الشمس ويكن من المطر»[1] وكذلك عثمان بن عفان في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم﴿فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون﴾[2] أما توقيعات علي كرم الله وجهه وهي الأكثر فمعظمها يحث على احترام العلم والعلماء وبيان فضلهما ومن ذلك ما وقعه لطلحة بن عبيد الله «في بيته يؤتى الحكم»[3]، وكذلك تفضيل التجارب وتقدير الخبرة في ممارسة الحياة على الغر من الفتيان ويظهر ذلك في توقيعه للحسين في شيء من أمر

(1) أحمد زكي صفوت ،جمهرة رسائل العرب، مج 1 ، ص530 ، العقد الفريد ، مج 4، ص287 (ابن مايكنك من الهواجر وأذى المطر) ، خاص الخاص ، ص 86

(2) المرجع نفسه،مج 1 ، ص530 ، ينظر، العقد الفريد ، مج4 ، ص287، الشعراء الآية 216

(3) المرجع نفسه ، مج 1 ، ص 531 ، ينظر، العقد الفريد ، مج4 ، ص287

عثمان «رأي الشيخ خير من مشهد الغلام »[1] أما الجزء الثاني فاشتمل على توقيعات خلفاء بني أمية بدءا بمعاوية بن أبي سفيان إلى مروان بن محمد، إلى جانب توقيعات بعض ولاتهم، ويظهر ذلك في الجدول الآتي :

الخليفة أو الوالي	عدد التوقيعات
معاوية بن أبي سفيان	07
يزيد بن معاوية	06
عبد الملك بن مروان	08
الوليد بن عبد الملك	02
سليمان بن عبد الملك	04
عمر بن عبد العزيز	17
يزيد بن عبد الملك	04
هشام بن عبد الملك	10
يزيد بن الوليد بن عبد الملك	02
مروان بن محمد	06
عبد الله بن علي	01
زياد بن أبيه	21
الحجاج بن يوسف	08
أبو مسلم الخراساني	04

(1) أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب ، مج1،ص531 ، خاص الخاص ، ص 86

ويبدو أن الجزء الثاني أوسع بكثير في مادة التوقيع من الجزء الأول، وأخذ كل من زياد وعمر بن عبد العزيز الحظ الأوفر من التوقيعات إذ يغلب على توقيعات زياد أنها شخصية تعالج شؤون الرعية وأنها موجزة ومنها؛ ما وقعه في قصة سارق«القطع جزاؤك»[1] وفي قصة متظلم «الحق يسعك»[2] ، أما عمر بن عبد العزيز فيغلب على توقيعاته فكانت بين القرآنية والشخصية وكلاهما تتدرجان في إصلاح الرعية وإقامة العدل؛ من ذلك ما وقعه في رجل ولاه الصدقات، وكان دميما فعدل وأحسن﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا﴾[3]، وكذلك ما وقعه في كتاب أرطأة يخبره بسوء طاعة أهل الكوفة «لا تطلب طاعة من خذل عليا، وكان إماما مرضيا»[4] فتوقيعات العصر الأموي المثبتة في الكتاب لم تخرج عن رد المظالم وإقامة العدل والأمن في المجتمع، ومن ذلك ما وقع به يزيد بن معاوية إلى عبد الله بن جعفر في جماعة من أهل المدينة«من عرفت فهو آمن»[5] وكذلك ما وقعه عبد الملك بن مروان للحجاج يخبره بقوة ابن الأشعث «بضعفك قوي وبخوفك خلع»[6] وتدل هذه التوقيعات الكثيرة على إقامة العدل ورد الظلم على سوء العلاقة بين الراعي والرعية في العصر الأموي إذ كثرت فيه الثورات وحركات التمرد والخلافات السياسية والحزبية وكذلك تلبية نداء المتضررين المعوزين والعفو عن المذنب والأمثلة في هذا كثيرة ، منها ما وقع به يزيد بن معاوية إلى عامله على خراسان «القرابة واشجة والأفعال متباينة فخذ لرحمك من فعلك»[7] وكذلك ما وقع به عبد الملك بن مروان للحجاج يشكوه أهل العراق «أرفق بهم فإنه لا يكون مع الرفق ما تكره ومع الخرق ما تحب»[8]، وكذلك ما فعله هشام بن عبد الملك[9] في قصة رجل شكا إليه الحاجة وكثرة العيال «لعيالك في بيت مال المسلمين سهم ولك بحرمتك منا مثلاه»[10] والأمر كذلك في توقيع عمر بن

(1) أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، مج 2 ، ص 501 ، ينظر، العقد الفريد ، مج 4 ، ص300
(2)المرجع نفسه ، مج 2 ، ص 501 ، ينظر، العقد الفريد ، مج 4 ، ص 30
(3) المرجع نفسه ، مج 2 ، ص 495 ، سورة هود الآية 30 ، ينظر، العقد الفريد ، مج 4 ، ص 290
(4) المرجع نفسه ، مج 2 ، ص 496 ، ينظر، العقد الفريد ، مج 4 ، ص291
(5) المرجع نفسه، مج2، ص492 ، ينظر، خاص الخاص ، ص 86
(6) المرجع نفسه، مج2،ص493 ، ينظر، العقد الفريد ، مج 4 ، ص 289
(7) المرجع نفسه، مج2،ص493 ، ينظر، العقد الفريد ، مج 4 ، ص 289
(8) المرجع نفسه، مج2،ص493 ، ينظر، خاص الخاص ، ص 87
(9) هو أبو الوليد وأمه أم هشام بن إسماعيل بن هاشم بن الوليد بن المغيرة المخزومي، ولد سنة نيف وسبعين، بيع بالخلافة بعد أخيه يزيد سنة 105 هـ وتوفي سنة 125 هـ(موسوعة أعلام الخلفاء، ص143 - 146).
(10) أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ،مج2،ص498 ، ينظر، العقد الفريد ، مج 4 ، ص 292

عبد العزيز لبعض عماله في مرمّة مدينة «ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم»[1] ووقع كذلك في رقعة رجل تظلم من ابنه «إن لم أنصفك منه فأنا ظلمتك»[2] ووقع في مثل هذا زياد في قصة قوم رفعوا على عامل «من أماله الباطل قومه الحق»[3] .

أما الجزء الرابع فدون فيه توقيعات العصر العباسي الأول بدءا من الخليفة السفاح إلى علي بن عيسى, ويظهر ذلك في الجدول الآتي :

الخليفة أو الوالي	عدد التوقيعات
السفاح	10
المنصور	22
المهدي	13
الهادي	02
هارون الرشيد	22
المأمون	22
الواثق	01
أبو مسلم الخراساني	05
عمرو بن عبيد	01
أبو عبيد الله	01
الفيض بن أبي صالح	01
يحي بن خالد البرمكي	03
جعفر بن يحي البرمكي	28
الفضل بن يحي	01

(1)أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب ، مج2،ص495 ، ينظر, العقد الفريد ، مج 4 ، ص290

(2) المرجع نفسه،،مج2،ص496 ، ينظر، العقد الفريد ، مج 4 ، ص 291

(3) المرجع نفسه، مج2،ص501 ، ينظر، العقد الفريد ، مج4 ، ص 299

الفضل بن سهل	16
الحسن بن سهل	05
طاهر بن الحسين	24
عبد الله بن طاهر	04
يوسف بن القاسم	07
أحمد بن يوسف	06
عمرو بن مسعدة	01
محمد بن يزداد	02
عبد الله بن محمد بن يزداد	02
إبراهيم بن العباس	02
محمد بن عبد الله بن طاهر	02
عبيد الله بن سليمان بن وهب	05
عبد الله بن المعتز	02
علي بن عيسى	02

والملاحظ على الجزء الرابع أنه أكبر من الأول والثاني, أما الجزء الثالث فلم يثبت فيه شيئا من التوقيعات إلا بعرض رسائل العصر العباسي الأول وردودها، وقد امتازت توقيعات الجزء الرابع بالإكثار حينا والإقلال حينا آخر، ومن المكثرين المنصور، هارون الرشيد، المأمون، إذ بلغت توقيعاتهم اثنين وعشرين توقيعا لكل واحد منهم والفضل بن سهل ست عشرة توقيعا ليكون كل من جعفر بن يحي وطاهر بن الحسين أكثرهم على الإطلاق الأول منهم ثمان وعشرين توقيعا والثاني ست وعشرين توقيعا، أما المقلين الذين ورد عنهم توقيع واحدا فهم الواثق، عمرو بن عبيد، أبو عبيد الله ، الفيض بن أبي صالح و الفضل بن يحي و عمرو بن مسعدة ، وهذا التنوع في العدد انجر عنه التنوع في الموضوعات ويدل هذا على انتشار الكتابة وتغير الحياة الأدبية .

فتوقيعات العصر العباسي لم تختلف كثيرا عن توقيعات العصر الأموي إلا من حيث الكثرة، فقد ساهمت في إقامة العدل ونصرة المظلوم وتلبية نداء المتضررين ومراعاة شؤون الرعية كما هو الأمر في توقيع المهدي[1] لصاحب خراسان يخبره بغلاء الأسعار «خذهم بالعدل في المكيال والميزان»[2] وفي توقيع الحسن بن سهل في قصة قوم تظلموا من واليهم «الحق أولى بنا والعدل بغيتنا وإن صح ما ادعيتم عليه صرفناه وعاقبناه »[3] وفي مثل هذا أيضا وقع طاهر بن الحسين في قصة لص «ينفذ حكم الله فيه»[4] والأمر كذلك ما وقعه المنصور[5] في قصة رجل شكا دينا«إن كان دينك في مرضاة الله قضاه »[6] وفعل المهدي في قصة قوم أصابهم القحط «يقدر لهم قوت سنة القحط والسنة التي تليها»[7] ويظهر في هذا كله اتساع معرفة الموقع وعمق التفكير ودقة الإصابة والإجابة وأصالة الذوق متضمنة بعض المحسنات البديعية العفوية فضلا عن الإيجاز في اللغة ودقة الفكرة .

إن الناظر لمادة التوقيعات في جمهرة رسائل العرب يجدها واسعة وموثقة غير مشفعة بدراسة أدبية أو فنية تكشف أغوار وجمال هذا الفن الأدبي، وكأننا بأحمد زكي صفوت جعل همه جمع المادة، ولكنه مع ذلك أغفل كثيرا من توقيعات العصر العباسي الثاني وفي هذا يقول حمد بن ناصر الدخيل «إنه أهمل إثبات شيء من التوقيعات في العصر العباسي الثاني والعصر العباسي الثالث ولم يذكر شيئا من التوقيعات في المغرب العربي والأندلسي وبذلك يحتاج عمله إلى تكملة واستدراك »[8]، ثم أن معظم مادة التوقيع الموجودة في الكتاب قد أخذها المؤلف من العقد الفريد وخاص الخاص كما يشير هو في آخر كل صفحة ومع هذا كله يبقى ما قام به المؤلف عملا مميزا في العصر الحديث يعكس

(1)هو أبو عبد الله محمد المهدي، بويع بالخلافة سنة 158 هـ ، كان عهده عهد ازدهار ورخاء ، انتهت خلافته في 169 هـ وهي سنة وفاته (موسوعة أعلام الخلفاء، ص 171 - 174).

(2) أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ،مج4،ص372 ، ينظر، العقد الفريد ، مج 4 ، ص296

(3) المرجع نفسه ، مج4،ص389 ، ينظر، العقد الفريد ، مج 4 ، ص 304

(4) المرجع نفسه، مج4،ص392

(5) هو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، تميز بالحزم وصواب التدبير وحسن السياسة ، بويع بالخلافة سنة 136 هـ ، وتوفي سنة 158 هـ ، وكانت ولايته 22 سنة (موسوعة أعلام الخلفاء، ص 165 - 169).

(6) أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب، مج4، ص370

(7) المرجع نفسه، مج،ص372 ، ينظر، العقد الفريد ، مج 4 ، ص 295

(8) حمد بن ناصر الدخيل، فن التوقيعات الأدبية، ص1092

اهتمام النقاد بهذه المادة بل أصبح كتاب جمهرة رسائل العرب مرجعا مهما للباحثين والدارسين وأساتذة الأدب العربي في الجامعات .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني :دراسات حول فن التوقيع:

1- بلاغة الكتاب في العصر العباسي لمحمد نبيه حجاب .

يتضمن هذا الكتاب ثلاثة أبواب افتتحه المؤلف بمبحث تمهيدي تحدث فيه عن نشأة الكتابة وتطورها في الجاهلية والإسلام، ليخص الباب الأول بالكتابة في العصر العباسي وعوامل نهضتها وأهم أغراضها لينتقل بعدها إلى الباب الثاني متحدثا عن مدارس الكتابة الفنية بدءا من مدرسة الترسل الطبيعي "لابن المقفع" إلى مدرسة الصناعة اللفظية "للقاضي الفاضل" أما الباب الثالث فتوسع فيه للحديث عن أعلام الكتابة سواء في المترسلين أم أصحاب المقامات .

لقد تحدث "نبيه حجاب" عن التوقيعات الأدبية في رحاب الكتابة إذ أن التوقيع لم يبرز إلا بتطور هذا الفن وقد قسمها إلى نوعين من الكتابة علمية وأدبية يبرزهما المخطط الآتي :

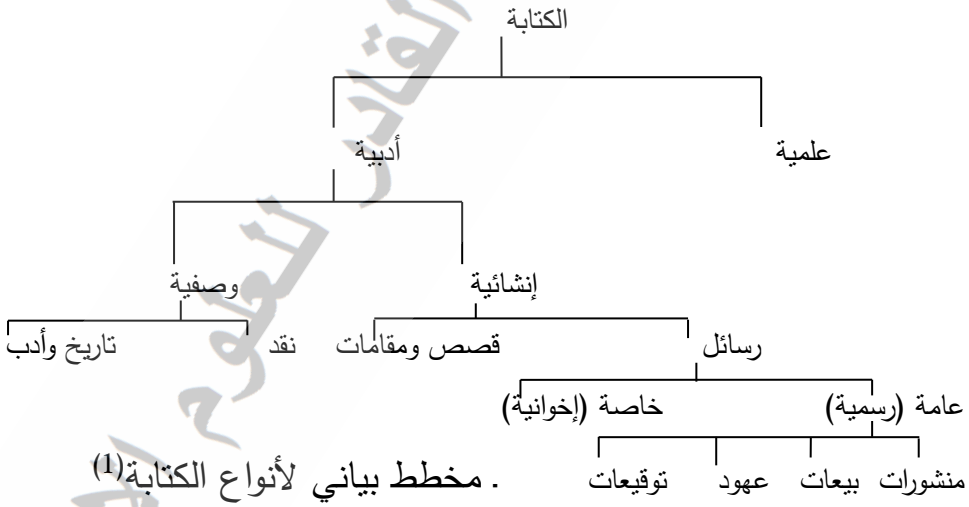

. مخطط بياني لأنواع الكتابة[1]

وبعد هذا التوضيح لأنواع الكتابة تحدث عن التوقيع في الكتابة الإنشائية في فصل الرسائل إذ عرفه بأنه«التعليق على الرسائل الواردة إلى الديوان بما يناسبها مع التعليل لذلك بآية قرآنية أو حكمة سائرة أو قول محكم من إنشاء الكاتب بأسلوب موجز دقيق ربما يبلغ بالإيجاز حد الإعجاز»[2] إن التعريف الذي أورده المؤلف لا يختلف كثيرا عمّا عرضناه من تعاريف للتوقيع، إلا أن قوله مع التعليل يوحي بأن الكلام الموقع به هو خارج عن الأنواع التي ذكرها بل هي على سبيل التعليل عمّا وقعه إما أن يكون آية أو حكمة سائرة أو قولا محكما وأغفل الإشارة إلى كون التوقيع شعرا.

(1) محمد نبيه حجاب ،بلاغة الكتاب في العصر العباسي ، مكتبة الطالب الجامعي مكة المكرمة ،ط2(1407هـ-1986م)، ص89
(2المرجع نفسه، ص 96

وقد لمح" نبيه حجاب" إلى أبرز صفات التوقيع التي هي البلاغة مستشهدا بما كتبه جعفر البرمكي من توقيعات لا تنفك أن تكون آية في الإيجاز والبلاغة ومن ذلك توقيعه لعامل كثر التظلم منه«كثر شاكوك ، وقل شاكروك، فإما اعتدلت وإما اعتزلت»[1]، وفي قصة محبوس يطلب العفو«العدل أوثقه والتوبة تطلقه»[2]، وحدث أن وقع بين يديه عمرو بن مسعدة في شكوى عمال يريدون زيادة رواتبهم بقوله «قليل دائم خير من كثير منقطع»[3]، ثم دلل على أهمية هذا المنصب وقدره ومن يتولاه مستشهدا بما قاله "القلقشندي" وفي هذا كله نرى المؤلف قد ردد ما قاله الأولون عن التوقيعات وشروطها وخصائصها .

كماعالج قضية الخلاف الكبير بين النقاد في أصل نشأة التوقيعات أهي عربية أم منقولة عن الفارسية؟ ليقرر بأنها عربية وفي هذا يقول «غير أن توقيعات الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية تجعلنا نقول مع القائلين بعربيتها الأصلية »[4] ليورد طائفة من التوقيعات كتوقيع أبي العباس السفاح في جماعة من أهل الأنبار يشكون من استيلاء الدولة على منازلهم ولم تعوضهم عنها«هذا بناء أسس على غير تقوى»[5]، وتوقيع المنصور إلى عامله على مصر« طهر عسكرك من الفساد يعطك النيل القياد»[6] والرشيد فيما كتب إليه يحي بن خالد من السجن يستعطفه فوقع «عظيم ذنبك أمات خواطر العفو عنك»[7] ليقرر أن الكثيرين كانوا يقتبسون توقيعاتهم من القرآن الكريم كما هو الحال عند الصاحب بن عباد في قصة أعجبته﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾[8] وفي رقعة رفعت إليه تضم الكثير من تعبيراته﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾[9] ولبعض مخالفيه﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾[10] فالموقع بالآيات القرآنية يريد أن يرسخ قيمة إسلامية مدعما ذلك

(1) محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي، ص 96 ، ينظر، العقد الفريد ، مج 4 ، ص 302 ، جمهرة رسائل العرب ، مج 4 ، ص 384
(2)المرجع نفسه ، ص 96 ، ينظر، العقد الفريد، مج 4 ، ص 302 (العدل يوبقه ، والتوبة تطلقه)، جمهرة رسائل العرب ، مج 4 ، ص 384 (العدل أوقعه ...)
(3) المرجع نفسه ، ص 96
(4المرجع نفسه ، ص97 – 98
(5) المرجع نفسه ، ص 97 ، ينظر، العقد الفريد ، مج 4 ، ص293 ، جمهرة رسائل العرب ، مج 4 ، ص 367
(6) المرجع نفسه ، ص 97 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب ، مج 4 ، ص 370
(7) المرجع نفسه ، ص 97
(8) المرجع نفسه، ص97 الطور الآية 15 ، ينظر, يتيمة الدهر، مج 3 ، ص234
(9) المرجع نفسه ص97 يوسف الآية 65 ، ينظر، يتيمة الدهر ، مج3 ، ص 234
(10) المرجع نفسه، ص97 البقرة الآية 79

بنصوص قرآنية مؤيدا موقفه في القضية الموقع عليها ، مما يحقق سرعة الاستجابة والانقياد لما يوقع عليه[1] .

فمحمد نبيه حجاب في دراسته للتوقيعات يعدها جزءا من الرسالة أو نوعا من أنواع الرسائل .

2 . الآداب العربية في العصر العباسي الأول (محمد عبد المنعم خفاجي).

تعرض عبد المنعم خفاجي للتوقيعات في إطار النثر الفني في العصر العباسي الأول واقفا عند مفهوم الكتابة وصورها المختلفة إلى أنواع الرسائل الإخوانية منها والأدبية والرسائل الديوانية مركزا على فن التوقيع الذي يعتمد التأنق في الأسلوب والجمال في العبارة، ولفت عبد المنعم خفاجي الدارس إلى أهم من ألف في أدب الكتاب والوزراء بعرض مؤلفاتهم دون دراسة أو تحليل ومن هؤلاء ؛ "أدب الكاتب" لابن قتيبة و"أدب الكتاب" للصولي وكتاب "الكتاب" لابن درستويه و"الوزراء والكتاب" للجهشياري و"صبح الأعشى" للقلقشندي[2] .

كما ألمح المؤلف إلى أهم مميزات كتاب الدواوين واصفا إياهم بأنهم فحول البيان وأعلام البلاغة وحذاق الأدب ليخلص لأهم خصائص الكتابة بصفة عامة في هذا العصر المتمثلة في سعة الخيال وطرافته والتأنق في الألفاظ وأسلوبها الذي امتاز بالتجويد والتهذيب واستعمال المحسنات البديعية[3] ، فأما التأنق في الألفاظ وتجويدها واستعمال المحسنات البديعية فقد اتسمت به أغلب التوقيعات أما الخيال وطرافته فهو بعيد عنها فلغة التوقيعات صريحة واضحة لاغموض فيها ولا غرابة لأن وظيفتها الإقناع والحسم والفصل وبعد هذا التقسيم لأنواع الكتابة شرع يتحدث عن التوقيعات كونها من أدب السلطانية معرفا إياها بأنها« فن بليغ من فنون النثر ولون رائع من ألوان الكتابة وهو عبارة موجزة بليغة يكتبها الخليفة أو الأمير أو الوزير في أسفل الكتب الواردة إليه بإبداء الرأي فيما يرفع إليه من شكوى أو يقدم له من رجاء أو يستشار فيه من أمر»[4]ونلاحظ أن هذا التعريف لا يختلف عن بقية التعاريف السابقة فقد حدد من يتولاه وأنه يكون في أسفل الكتاب متسما بالإيجاز والبلاغة ثم أنه لم

(1) خالد محمد الهزايمية وعدنان محمود عبيدات، التوقيعات في نهاية عصر بنو أمية جمع وتحقيق ودراسة، مجلة التراث العربي، ع106 ص 160
(2) ينظر ، محمد عبد المنعم خفاجي ، الآداب العربية في العصر العباسي الأول، دار الجيل بيروت، ط1(1412 هـ ـ 1992م)، ص 209
(3) ينظر ، محمد عبد المنعم خفاجي، المرجع نفسه، ص 312
(4)المرجع نفسه، ص 320

يتوقف عند حدود التعريف بل ذكر معاني التوقيع في اللغة كالتوهم والإصابة والتأثير وهذا الأخير هو المقصود مستفيدا ذلك من مصادر اللغة .

حدد المؤلف بدايات التوقيع بزمن صدر الإسلام على يد الخليفة عمر بن الخطاب وهذا يتفق مع ما ذهب إليه ابن عبد ربه إذ يقول: «ويروى أن أول توقيع عرف كان لعمر »[1] كما أن المؤلف لفت إلى أبرز سمات هذه التوقيعات في العصر العباسي الأول وهي «روعة الإيجاز وقوة التعبير وجمال التصوير وشدة التأثير ولطف الإشارة»[2] ليشير إلى أنواع التوقيع المتمثلة في الحكمة والقرآن والحديث والشعر مغفلا التوقيعات الواردة أمثالا .

لقد اتسمت دراسة "عبد المنعم خفاجي" للتوقيعات بمسحة شمولية نقدية إذ ربط فن التوقيعات بازدهار الكتابة في هذا العصر و الاهتمام بها.

3 . تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام(محمود المقداد):

تضمن كتاب المقداد أربعة أبواب حيث جعل الأول للكتابة والكتاب في صدر الإسلام وهو يضم أربعة فصول, فالفصل الأول خصصه لانتشار الكتابة ودواعي ازدهارها وعلاقتها بالتدوين، أما الفصل الثاني فلبدايات نشوء الدواوين العربية العفوية منها والمنتظمة ليجعل الفصل الثالث لكتاب النبي عليه السلام, و ليختم الباب بفصل رابع تضمن كتابة الرسائل وتأريخها .

أما الباب الثاني فقد بسط فيه المؤلف القول في موضوعات الترسل في صدر الإسلام جاعلا فيه أربعة فصول، حيث خص الأول لموضوعات الترسل في حياة النبي عليه السلام و الثاني فلموضوعاته في حياة أبي بكر الصديق، وأما الثالث فلموضوعاته في خلافة عمر وعثمان أما الأخير فهو في خلافة علي، لينتقل إلى الباب الثالث الذي جعله لأهم الخصائص الفنية للترسل في صدر الإسلام, خص الأول للمنهج و الثاني للأسلوب أما الثالث فهو للمعاني ليجعل الأخير للغة ومستوياتها، ليختم كتابه بباب رابع فصل فيه القول لأبرز قضايا الترسل في صدر الإسلام جاعلا

(1) محمد عبد المنعم خفاجي ، الآداب العربية في العصر العباسي الأول ، ص 312
(2) المرجع نفسه ، ص 312

الفصل الأول في تكوين الكاتب المترسل وما يحتاج إليه من ثقافة، أما الثاني فهو في الآثار الترسلية التي تضم الوثائق والتوثيق والنحل والتوقيعات .

عالج المقداد التوقيعات في الباب الرابع من كتابه في الفصل الثاني في الآثار الترسلية، حيث تعرض فيه إلى مفهوم التوقيعات وأصل نشأتها وأهم خصائصها وأنواعها خاتما بنماذج من توقيعات الخلفاء الراشدين وما يلاحظ على هذه الدراسة أنها محدودة في الزمان الذي هو صدر الإسلام وبالتالي فدراسته دراسة جزئية لهذا الفن إذ أنه ممتد إلى آخر سقوط الدولة البغدادية.

لم يختلف المقداد في تعريفه للتوقيعات شأنه شأن الآخرين سواء من الجانب اللغوي أو الاصطلاحي إلا أنه في تعريفه الاصطلاحي نراه يتكئ على تعريف "عمر فروخ" و"محمد نبيه حجاب" وهما أديبان حديثان بخلاف ما رأيناه عند "عبد المنعم خفاجي" و"أحمد سعيد الزهراني" و"هاشم مناع ومأمون ياسين" و"حمد بن ناصر الدخيل" إذ اعتمدوا على تعاريف الأقدمين كابن خلدون والقلقشندي وغيرهما خص محمود المقداد توقيعات صدر الإسلام بميزة تختلف عن باقي التوقيعات الأخراة إذ يقول«التوقيع أن يكون ردا على كتاب أو ربما على قصة أو رقعة مرفوعة في شكوى أو مشكلة أو طلب عون أو رأي ويهمنا هنا الجانب الأول لأنه هو الغالب على التوقيع في صدر الإسلام»[1] فالتوقيع لم يخرج عن جواب على مشكلة أو شكوى وهذا أمر بديهي في نظرنا مع نشأة التوقيعات إذ أنها كانت فتية تمثل البذور الأولى لهذا الفن .

كما أشار الباحث إلى خصائص التوقيعات وقد حصرها في خاصيتين اثنتين الإيجاز والبلاغة مدعما رأيه بقولي" ابن عبد الغفور الكلاعي"«وهذا النوع مما عدلوا فيه عن التطويل والتكرار إلى الإيجاز والاختصار»[2] "وابن خلدون"«يكون التوقيع بأوجز لفظ وأبلغه »[3]، وما يلاحظ على هذا التحديد لخصائص التوقيعات أنها نظرة شاملة مجملة غير مفصلة فالتوقيعات لا تنحصر فقط عند خاصيتي

(1) محمود المقداد ، تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام ، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ط1(1413 هـ – 1993 م) ، ص396
(2) الكلاعي ، إحكام صنعة الكلام ، ص 160
(3) ابن خلدون، المقدمة ، ص 247

الإيجاز والبلاغة إذ هي الأساس بل هناك خصائص أخرى فنية تتضاف إليهما منها الإقناع، وتعتمد على الاقتباس وتمتاز بأسلوب محكم رصين مكثف [1].

و لكن محمود المقداد لم يساير الذين عزوا التوقيعات إلى الثقافة الأجنبية وعلى وجه أخص الفارسية من بعض الباحثين العرب أمثال" جرجي زيدان" و"شكري فيصل" وهذا منتهى العجب، بل تصدى للرد عليهم وتصحيح ما ذهبوا إليه، يقول: «وكأن العرب لا حول لهم ولا طول في أدبهم ونثرهم منه خاصة وهم الذين عرفوا أساليب الإيجاز والإطناب معا»[2] مستشهدا بقول الجاحظ عن البلاغة بأنها الإيجاز في غير خلل والإطناب في غير ملل، ليقرر أن التوقيعات« ذات أصل عربي نشأت بعد الرسائل الديوانية بفضل الحاجة الإدارية»[3]، داعما رأيه هذا بقول كل من" أحمد محمد الحوفي" بأن التوقيعات مارسها العرب قبل اتصالهم بالفرس وأنها ملائمة للفطرة العربية، ومحمد نبيه حجاب بأن توقيعات الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية تجعلنا نقول مع القائلين بعربيتها الأصلية [4] وفي كل هذا نراه عند مناقشته لأصل التوقيعات منتصرا للحق والصواب فالأثر الأعجمي لم يظهر إلا في العصر العباسي.

لقد حاول المقداد في هذه الدراسة أن يثبت حقيقة توصل إليها بعد النظر والتفحص والتدقيق إلى أن التوقيعات لم تعد جزءا من الرسالة أو ذيلا منها بل هي فن قائم بذاته، وذلك أولا بعرض رأي القائلين بأنها جزء من الرسالة وفي هذا يقول "عبد المنعم خفاجي": «فن التوقيعات يعد متمما لفن الرسائل وجزءا منه وذلك لأنه بمنزلة جواب مختصر على مضمون الرسالة»[5] ثم يعرض الرأي الذي هو على النقيض من ذلك حيث يقول" حسين نصار" أن التوقيعات«فن أدبي خاص من ثمار فن المراسلات»[6] ليعرض بعد هذا ميله إلى" حسين نصا"ر في قوله «ونحن نميل إلى الرأي الثاني لأننا نعتقد أن التوقيعات وإن كانت في بداية الأمر قد ولدت وترعرعت في أحضان أدب الترسل إلا أنها

(1) ينظر ، الفصل الأول من هذه المذكرة ، ص 16
(2) محمود المقداد، تاريخ الترسل النثري عند العرب ، ص 398
(3) ينظر ، محمود المقداد، المرجع نفسه ، ص 400
(4) ينظر، محمود المقداد، المرجع نفسه ، ص 400
(5) محمد عبد المنعم خفاجي ، الحياة الأدبية عصر بني أمية نقلا عن محمود المقداد ، تاريخ الترسل النثري عند العرب ، ص 401
(6) حسين نصار ، أدب المراسلات في العصر الأموي، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام الكويت، (د.ط) (1983م)، ع3، مج14، ص84

دخلت في ميادين أخرى لا علاقة لها بالترسل وهي الرد على رقاع الشكوى أو قصص التظلم»[1] ليسوق بعد هذا جملة من الأدلة والبراهين تثبت صحة ما ذهب إليه ومنها فالتوقيعات لم تمثل رسالة جديدة بل«تكتب على الرسالة نفسها أو الرقعة أو القصة المرفوعة إلى أولي الأمر»[2] كذلك أن التوقيعات لم تلتزم منهج الرسائل في«الختم أو الطي وما أشبه ذلك من أمور مختلفة »[3] وهذه الأدلة كلها . حسب المقداد . تجعل من التوقيعات نوعا أدبيا خاصا مستقلا.

ومما يجب توكيده أن بحث المقداد في التوقيعات رغم محدوديته الزمنية في صدر الإسلام إلا إنه أضاف رؤى نقدية جديدة ولا سيما في مناقشته لأصل التوقيعات ومكانتها من أدب الترسل ليبقى السؤال يطرح نفسه إذا كانت التوقيعات الأدبية فنا قائما بذاته، فلماذا أحجمت الدراسات الحديثة عن مقاربة هذا الفن البليغ، الموجز؟

4 . النثر الفني عند المترسلين من الشعراء(أحمد سعيد أحمد الزهراني)

تحدث الباحث سعيد أحمد الزهراني عن فن التوقيعات في الفصل الثاني من رسالته بعد أن عالج موضوع الرسائل، وهو بهذا يعد التوقيعات فنا قائما بذاته لا يندرج تحت فن الرسالة وإن كان قريبا منه وفي هذا يقول: «بعد أن ألقى الباحث الضوء على الرسائل آن له أن ينتقل إلى فن قريب منه هو فن التوقيعات»[4]، مشيرا إلى مفهوم التوقيعات، معتمدا على قول القلقشندي في هذا رادا بداياتها إلى العصر الإسلامي، معللا قلة انتشار التوقيعات باستغنائهم بالخطابة عن النثر الفني إذ أن المجتمع الإسلامي كانت تغلب عليه الأمية الكتابية، منوها بعد هذا بأهمية التوقيعات في رسم سياسة الدولة الإدارية موازنا إياها بالمراسيم الملكية والتعليمات الجمهورية محددا وظيفته بالإصلاحات .

لقد خصص الزهراني دراسته للتوقيعات من زاوية مترسلي الشعراء ليتوصل بأن التوقيع عندهم ليس منعا ووصلا وقطعا وعزلا بل«ضربا من الفن الخالص أخصب بلاغة وأبرع بيانا وأعلق بالأدب ذلك أن توقيعاتهم لم تأخذ المنحى الرسمي من أمر ونهي وقطع من مهام التوقيع ووظائفه الأصلية، بل

(1) محمود المقداد ، تاريخ الترسل النثري عند العرب ، ص 401
(2) المرجع نفسه ، ص 402 – 403
(3) المرجع نفسه ، ص 403
(4) أحمد سعيد أحمد الزهراني ، النثر الفني عند المترسلين من الشعراء في القرن الثالث الهجري ، رسالة دكتوراه جامعة أم القرى (د .ط) (1417 هـ) ص 150

أطلقوا أقلامهم حرة للتعبير عما تكنه أنفسهم من شاعرية وتجيش به من إبداع حقيقي »[1] معللا هذا التعبير في منحى التوقيع أن مترسلي الشعراء لم يلوا مراكز سياسية ،فتوقيعاتهم هي توقيعات بيانية خاصة وبهذا يكون سعيد أحمد الزهراني قد تفرد بالإشارة إلى تطور فني التوقيع بخروجه عن دواليب السلطة والارتباط بالرسائل الديوانية والإدارة إلى التعبير عن المشاعر والمكنونات لدى مترسلي الشعراء في مراسلاتهم الإخوانية المتحررة من كل القيود، ومن ذلك ما وقعه العتابي لصديق له «إن أقل من بلائك عندي يستغرق ثنائي, وأقل من تأميلي إياك يعفى على ما كان مني وليس لك مع فضلك ورجائي تجاوزك سبيل إلى قطيعتي»[2] فالتوقيع عنده شهد تطورا كما عرفته الرسالة من رسمية إلى خاصة .

إن توقيعات مترسلي الشعراء _في نظر الزهراني_ لم يهتم بها النقاد ولم يعنوا بها لخروجها عن منحى التوقيع المتعارف عليه ولقد فطن إلى هذا ابن درستويه حين قال: «وأعلم أن التوقيع إنما هو أمر ونهي فالواجب أن يجري مجراهما لا غير»[3] إن إشارة الزهراني إلى توقيعات مترسلي الشعراء وما أضافته من تغير يبدو السابق في هذا الموضوع وطفرة نوعية لم يسبقه إليها أحد .

إن تقسيم الزهراني لتوقيعات مترسلي الشعراء يبدو مختلفا عما عهدناه من التقسيمات القبلية إذ هي أقسام ثلاثة، توقيع نثري وتوقيع شعري و توقيع مزدوج.

التوقيع النثري :

وهذا النوع هو أصل هذا الفن إلا أن توقيعات مترسلي الشعراء مالت إلى الإبداع الفني في مثل ما وقع به "محمد بن عبد الملك الزيات"«الجوار للحيطان والتعطف للنسوان»[4]، ولم يتوقف الزهراني عند سرد هذه التوقيعات بل راح يتعمق في معانيها، فالصد المؤلم والجواب القاسي، هو الجفاء حين يتأصل في النفس فيصبح سمة لا فكاك منها، ورمزا خالدا للقسوة, واصلا إلى كشف أغوار شخصية الزيات«أن هذا التوقيع يحمل على وجازته الشديدة أبعاد شخصية ابن الزيات تلك الشخصية المتجبرة

(1) أحمد سعيد أحمد الزهراني ، النثر الفني عند المترسلين الشعراء، ص 151
(2) المرجع نفسه ، ص 153
(3) ابن درستويه ، كتاب الكتاب نقلا عن احمد سعيد أحمد الزهراني ، النثر الفني عند المترسلين من الشعراء ، ص 152
(4) أحمد سعيد أحمد الزهراني ، النثر الفني عند المترسلين الشعراء ، ص 152

القاسية البعيدة عن الذوق كان من الهين أن يرفض جواره بلطف وكان من اليسير أن يتجاهله تماما»[1] ليكشف بعدها أهم مميزات التوقيع المتمثلة عنده فيما أسماه بالاقتصاد اللغوي .

التوقيع الشعري :

أشار الزهراني إلى أن التوقيع الشعري لدى الكتاب الشعراء لا يتأتى إلا للمقتدرين، وهو باب يتنافس فيه أرباب البيان وفرسان الكلام، ومن تلك التوقيعات ما كتبه الحسن لحبيب الطائي في عدة وعدها إياه فكتب إليه يستعجله بها فبعث الحسن بألف درهم وكتب :

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا قلا ولو أخرته لم يقلل

فخذ القليل وكن كمن لم يسأل ونكون نحن كأننا لم نفعل[2]

ثم يعلق الزهراني على هذا التوقيع بأن اعتذار الحسن لصاحبه أجمل من عطائه .

التوقيع المزدوج :

إن المزدوج في القول (الشعر والنثر) في الرسائل نهج مطروق عند الكثير من الكتاب إلا أن هذا في التوقعات يكاد ينعدم إذ أنه يخالف الإيجاز الذي هو أبرز سماتها، فطبيعتها على حد رأي الزهراني«تحول بينها وبين هذه المزاوجة وإن حدث هذا فإن التوقيع سيفقد سمة الإيجاز التي اشتهر بها»[3]، ومن هذا ما كتبه العتابي إلى رجل قضى له بعض حاجته وماطله في بعض«أما بعد قد تركتني منتجزا لوحدك وصاحب الحاجة محتاج إلى نعم هنيئة أولا مريحة، والعذر الجميل أحسن من المطل الطويل»[4]، وقد كتب :

بسطت لساني ثم أوثقت نصفه فنصف لساني بامتداحك مطلق

فإن أنت لم تنجز عداتي تركتني وباقي لسان الشكر بالناس موثق[5]

فتوقيع العتابي ليس ردا على طلب بقدر ما هو متابعة وإلحاح من الطالب وهو العتابي نفسه .

(1) احمد سعيد احمد الزهراني ، النثر الفني عند المترسلين الشعراء، ص153

(2) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مج1 ، ص 208

(3) احمد سعيد احمد الزهراني ، النثر الفني عند المترسلين الشعراء ، ص 155

(4) الجاحظ المحاسن والأضداد، تح، فوزي عطوى ، الشركة اللبنانية للكتاب بيروت لبنان ، (د . ط) 1969 ، ص 13

(5) المصدر نفسه ، ص 13

وبعد هذا كله تعد دراسة الزهراني للتوقيعات بالأخص مترسلي الشعراء دراسة حديثة تنم عن تطور جوانب مهمة ولا سيما تقسيماته للتوقيع إلى نثري وشعري ومزدوج، ولعل أحسن شيء أشار إليه الزهراني في عده التوقيعات فنا مستقلا لا يندرج مع فن الترسل، ثم ما طرحه غموض أكبر فإن نحن تساءلنا عن إهمال النقاد لدراسة التوقيعات وخصها بالتحليل فإن الزهراني يتساءل عن مادة التوقيعات في أصلها«إن ما أوردته من فن التوقيعات لا يمثل إلا النزر القليل مما أنتجته قرائحهم وسطرته أقلامهم، فأين ذهب مأثورهم»[1] .

5 ـ النثر في العصر العباسي (هاشم مناع ومأمون ياسين)

يعد كتاب النثر في العصر العباسي من أهم الكتب الحديثة التي عنيت بدارسة فن التوقيعات دراسة وافية شاملة حيث عالج فيه المؤلفان واقع النثر في العصر العباسي واقفين عند أهم أعلامه بالشرح والتحليل والدرس في شخصيات كتاب النثر كأمثال "ابن المقفع" و"سهل بن هارون" و"الجاحظ" و"ابن العميد" و"بديع الزمان الهمذاني" و"القاضي الفاضل" ليخص جزءا من كتابه لفن التوقيعات في الأدب العربي في نحو ثلاث وأربعين صفحة .

استهل هذا البحث بالتعرض إلى مفهوم التوقيعات في اللغة والاصطلاح بالوقوف عند تعريف القلقشندي ليقف بعد ذلك عند بداية التوقيعات، وهنا يصدر الكاتب حكما نقديا بأن لا وجود للتوقيعات إلا بوجود الكتابة فهما متلازمان ليعزو بداياتها إلى الخلافة الراشدة عند أبي بكر الصديق، لا عمر.

إن توقيعات الخلفاء الراشدين في نظر المؤلفين تعد قليلة«ولو استعرضنا توقيعات الخلفاء الراشدين لوجدناها لا تتجاوز أصابع اليد»[2] ويعود السبب في ذلك أن« أن العرب أمة أمية شاعت القراءة فيها بعد ظهور الإسلام»[3] ومن تلك التوقيعات ما وقع به الخليفة عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص«كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك»[4] وما وقع به عثمان بن عفان في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا أنه أمر بوجء أعناقهم﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما

(1) أحمد سعيد احمد الزهراني ، النثر الفني عند المترسلين الشعراء ، ص 157
(2)هاشم مناع و مأمون ياسين ، النثر في العصر العباسي ، ص 213
(3) المرجع نفسه ، ص 213
(4) ابن عبد ربه العقد الفريد ، مج4 ، ص 287 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب ، مج 1 ، ص 530

تعملون﴾[1] أما الخليفة الرابع علي بن أبي طالب فقد وقع في كتاب جاءه من الأشتر النخعي فيه بعض ما يكره «من لك بأخيك كله»[2]. ليطلق حكما نقديا بأن هذه التوقيعات«قائمة على المتانة والرصانة والقوة والإيجاز»[3] فتوقيعات صدر الإسلام لم تصل إلى الحد لتضع لنا فنا قائما بذاته «لأنها بدايات مطبوعة انطلقت من سجية دون تمحيص صدرت عن موهبة فذة وتجربة عميقة»[4]

أحصى المؤلفان أهم الأسباب التي جعلت التوقيعات في العصر الإسلامي نادرة، فالأول اختلاطها بأقوال الخلفاء وبالتالي لم يميزوا بين الأقوال التي عمادها اللسان والتوقيعات التي عمادها الكتابة أما الثاني فانتشار العدل وبسط الأمن والأمان إذ التوقيعات هي رد على المظالم، فبمجيء العصر الأموي أصبحت التوقيعات فنا قائما بذاته يحتاج إلى التعلم والدراسة إذ يقول : «قد ألفوا هذه التوقيعات التي تعتمد على التدريب على الكتابة والثقافة الواسعة ذلك أنهم حرصوا على اتخاذ المؤدبين لأبنائهم»[5]ومن تلك التوقيعات ما وقعه يزيد بن معاوية في كتاب مسلم بن زياد عامله عل خراسان وقد استبطأه في الخراج «قليل العتاب يحكم مرائر الأسباب، وكثيره يقطع أواخي الانتساب»[6] وتوقيع عبد الملك بن مروان في كتاب أتاه من الحجاج بن يوسف الثقفي يشكو إليه نفرا من بني هاشم، ويحرضه على قتلهم «جنبني دماء بني عبد المطلب فليس فيها شفاء من الطلب»[7] أما عمر بن عبد العزيز قفد وقع في كتاب امرأة حبس زوجها «الحق حبسه»[8]، وكذلك ماوقعه هشام بن عبد الملك في قصة متظلم «أتاك الغوث إن صدقت، وجاءك النكال إن كذبت»[9] .

لقد لمح المؤلفان إلى ميزة الخلفاء العباسيين إذ كان فيهم الشاعر والكاتب أومن يجمع بينهما ليصل إلى حقيقة الرقي العلمي والأدبي الذي بلغ أوجه في عهدهم, ولعل ما انتهى إليه النثر العربي عموما وفن الترسل إحدى صور ذلك، يقول«فلا غرابة أن نجد فن التوقيعات قد انتشر بعد أن نمت بذوره في

(1) العقد الفريد ، مج 4 ، ص 287,الشعراء الآية 216 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب ، مج 1 ، ص 530
(2) المصدر نفسه، مج 4 ، ص 288 ، ينظر, جمهرة رسائل العرب ، مج 1 ، ص 531
(3) هاشم مناع ومأمون ياسين ، النثر في العصر العباسي ، ص 214
(4) المرجع نفسه ، ص 215
(5) المرجع نفسه ، ص 216
(6) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مج4 ، ص289
(7)المصدر نفسه ، مج 4 ، ص 289 ، ينظر، خاص الخاص، ص 87 ، جمهرة رسائل العرب ، مج 2، ص 493
(8)المصدر نفسه، مج 4 ، ص291 ، ينظر، جمهرة رسائل العرب ، مج 2 ، ص 496
(9) الثعالبي ، خاص الخاص ، ص 87 ، ينظر، العقد الفريد، مج 4 ، ص292 ، جمهرة رسائل العرب ، مج 2 ، ص497

العصور السابقة»[1] ليثبت بعد هذه الدقة توقيعات خلفاء بني العباس أمثال أبي العباس السفاح في توقيعه في كتاب قوم غرقت ضياعهم في ناحية الكوفة «وقيل بعدا للقوم الظالمين»[2]، وكذلك ما وقع به هارون الرشيد إلى صاحب خراسان «داو جرحك لا يتسع»[3]، وينتهي إلى الإقرار بكثرة توقيعاتهم لأنها«لم تكن تنطبق على بعضهم شروط الكتابة التي لا بد أن تتوافر في الكتاب الذين خدموا في الدولتين الأموية والعباسية، فقد صدرت هذه التوقيعات عن إحساس بالمسؤولية، وعفوية وطبع لا تصنع فيها ولا مراء»[4].

وقد جاء عمل المؤلفين ممنهجا إذ أفردا جزءا لتوقيعات الأمراء والوزراء والكتاب من العصر الإسلامي إلى العباسي, واختصا زياد ابن أبيه بوقفات عند توقيعاته بالنقد والتميز «الذي عرف بالدهاء والشدة والحزم وقد تمكن من أسر قلوب الناس بفصاحته وحسن درايته»[5]، ومن تلك التوقيعات؛ ما وقعه في قصة متظلم«كفيت»[6]، وفي قصة رجل شكا إليه عقوق ابنه«ربما كان عقوق الولد من سوء تأديب الوالد»[7]، ووقع في قصة منتصح«مهلا فقد أبلغت أسماعي»[8]؛ فتوقيعات زياد امتازت بالإيجاز وإصابة المعنى، والأمر نفسه مع جعفر بن يحي البرمكي الذي أورد فيه أقوال العلماء في بلاغته وجزالته وهدوئه ليصدر حكما في توقيعاته «فهي تدل على عبقرية فذة وشخصية فريدة تفردت في فن التوقيع والكتابة»[9]. وقد أبديا أسفهما على ما آل إليه أمر هذا الفن الجليل، إذ لم يكتب له الاستمرار فأصيب بالشلل في بلاغته، وعللا الأمر بتحكم التتار في دواليب السلطة وشيوع اللغات الأعجمية نحو المغولية والفارسية والتركية مما أدى إلى اضمحلال التوقيعات وتغير شكل التوقيع و خروجه إلى فن الرسالة إذ يقول«أن التوقيعات خرجت عن شكلها في الإيجاز والمتانة والقوة

(1) هاشم مناع ومأمون ياسين ، النثر في العصر العباسي ، ص 218
(2) ابن عبد ربه ، العقد الفريد، ج4، ص294، سورة هود الآية 44
(3) المصدر نفسه ، ج4 ، ص296 ، ينظر, جمهرة رسائل العرب ، مج4 ، ص374
(4) هاشم مناع ومأمون ياسين ، النثر في العصر العباسي ، ص 219
(5) المرجع نفسه، ص 231
(6) المرجع نفسه، ص 231 ، ينظر، العقد الفريد ، مج 4 ، ص300
(7) المرجع نفسه، ص 231 ، ينظر، العقد الفريد ، مج4 ، ص 300
(8) المرجع نفسه، ص 231 ، ينظر، العقد الفريد ، مج 4 ، ص300
(9) هاشم مناع ومأمون ياسين، النثر في العصر العباسي، ص 233

والجودة والتضمين والاقتباس، وكان بعض الكتاب يوقعون توقيعاتهم فتصل إلى عدة أسطر مما يجعلنا ندخلها في باب الرسائل وليس التوقيع»[1] .

إن دراسة هاشم مناع ومأمون ياسين للتوقيعات تبدو دراسة جادة حاولت أن تعرف بهذا الفن لتجعله كباقي الفنون النثرية الأخرى، وبهذا وفرا مادة صالحة للدراسة من خلال هذا البحث .

6 . الرسائل الفنية في العصر العباسي(محمد محمود الدروبي) :

خص الدّروبي هذا الكتاب لدراسة أهم الرسائل التي وجدت في العصر العباسي على اختلافها سواء أكانت ديوانية أم إخوانية أم أدبية في أربعة أبواب، حيث خص الباب الأول للرسائل السياسية مقسما إياها إلى أربعة فصول فالأول للمخاطبات الإعلامية كالمنشورات والمبايعات والمخالعات والأمانات والبشارات والتوقيعات، والثاني للتنظيمات الإدارية كالقضاء والعطاء والخراج والتعيين والعزل والتكليف ليجعل الثالث للصراعات الداخلية كالصراع مع الأمويين والخوارج ويختم الباب بفصل رابع للعلاقات الخارجية مع الروم والإفرنج .

أما الباب الثاني فهو للرسائل الإخوانية ويضم فصلين , الأول للمظاهر الاجتماعية كالتهنئة والتعزية والهدية والدعوة والعيادة، أما الثاني فللعلاقات الشخصية كالاعتذار والاستعطاف ليخص الباب الثالث للرسائل الأدبية التي ضمت فصلين إذ الأول منهما للأغراض الأدبية كالمدح والرثاء والهجاء والوصف أما الثاني فللأشكال التعبيرية كالمفاخرة والمحاورة والمفاضلة والمساجلة والمفارجة ليختم دراسته بفصل رابع تولى برصد أبرز الخصائص الفنية في ألوان الرسائل وذلك في فصلين، الأول منهما لعناصر الشكل والمضمون، أما الثاني فلظواهر الأسلوب ويبدو الباب الأول أكبر أبواب الكتاب على الإطلاق إذ يحوي أربعة فصول وهذا يدل على حركة الدواوين الدؤوبة في العصر العباسي .

افتتح الدّروبي دراسته للتوقيعات بالإشارة إلى المعنى اللغوي الذي يخرج إلى معان مختلفة كالإصابة أو الرد السريع أو الأثر ليقف عند المفهوم الاصطلاحي الذي يراه جامعا إذ يقول : «التوقيع تعليق

(1) هاشم مناع ومأمون ياسين ، النثر في العصر العباسي، ص 235

موجز يكتب أسفل الرسائل الواردة إلى الديوان، أو على ظهرها متضمنا ردا مناسبا على مضمون كل واحدة من هذه الرسائل»[1]

لقد نوه الدّروبي بدور العباسيين في احتفائهم بالتوقيعات إذ جعلوا لها هيئة إدارية مستقلة وفي هذا يقول«ومهما يكن فقد أخذت التوقيعات تفشو منذ العصر العباسي بصورة جعلت الحاجة ماسة إلى تنظيم الأمر على نحو أفضل، فكان إنشاء ديوان التوقيع خطوة مهمة ركزت لهذا اللون من ألوان التراسل، وأكسبته قيمة جديدة »[2]، ويرجع السبب في ذلك إلى«ازدياد نفوذ العناصر الفارسية المسلمة في الدولة العباسية من تطور في الناحية الموضوعية أو الأسلوبية»[3] ليصدر المؤلف حكما نقديا في توقيعاتهم التي رآها«أوفر مادة وأكثر تنوعا من توقيعات متقدميهم»[4] معللا هذه الوفرة ب«اتساع الحاجة إلى التوقيعات في هذا العصر كما هو راجع إلى امتداد الكتابة إلى سائر الدواوين المركزية في الدولة»[5]، وما يميز دراسة الدرّوبي هو وقوفه عند أهم المصادر التي عنيت بهذا الفن قديمها وحديثها؛ فمن القديم يذكر كتاب العقد الفريد ويعتبره سباقا إلى رصد هذا الفن وجمع مادته، يقول: «إن ابن عبد ربه كان أول من فزع إلى جمع طائفة من توقيعات الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسين إضافة إلى توقيعات مبرزي الولاة والعمال والكتاب والأمراء والوزراء على اختلاف هذه الأعصر»[6]، وكتاب خاص الخاص للثعالبي الذي حذا حذو ابن عبد ربه فخص التوقيعات بأحد أبواب كتابه، أما المصادر الحديثة فاكتفى بكتاب جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت الذي «نهد إلى جمع طائفة واسعة من التوقيعات العباسية متكئا على أربعة عشر كتابا من أمات المصادر القديمة التي عنيت بالتوقيعات»[7]، ويلاحظ على دراسة الدرّوبي في إحصاء مصادر التوقيعات بنوعيها أنها نظرة جزئية مقتصرة على الصفوة المختارة وإلا فهناك مصادر أخرى أشارت إلى هذا الفن وإن كانت المصادر المذكورة آنفا أكبرها وأعلاها.

(1) محمد محمود الدروبي ، الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص 69
(2) المرجع نفسه ، ص 71
(3) المرجع نفسه ، ص 71
(4) المرجع نفسه ، ص 71
(5) المرجع نفسه ، ص 71
(6) المرجع نفسه ، ص 72
(7)المرجع نفسه ، ص 73

اتسمت دراسة الدرّوبي بإسهاب واسع ومستفيض لأغراض التوقيعات في العصر العباسي ومن أهمها إنصاف المتظلمين وإزالة شكاياتهم ومن ذلك ما وقعه الحسن بن سهل في قصة قوم تظلموا من واليهم «الحق أولى بنا والعدل بغيتنا وإن صح ما ادعيتم عليه صرفناه وعاقبناه»[1] ليقرر أن «اختصاص التوقيعات بتحقيق هذا الغرض مما يوثق عرى العدل والأمن في المجتمع»[2] من تلك الأغراض رد الشكاية أو الشفاعة ومعارضة صاحبها بما يقتضيه المقام ومن ذلك ما وقع به المأمون على رقعة رجل طال في السجن مقامه«ركوبك مطية الجهل صيرك أهلا للقتل وبغيك علي وعلى نفسك نقلك عن سعة الدنيا إلى قبر من قبور الأحياء، ومن جهل الشكر على المنن قل صبره على المحن فاصبر على عواقب هفواتك وموبقات زلاتك على قدر صبرك على كثير من جناياتك فإن حصل في نفسك كف عن معصيتي وعزم على طاعتي وندم على مخالفتي فلن تعدم مع ذلك جميلا من نيتي»[3] فالملاحظ لهذا التوقيع يجده طويلا مخالفا لأبرز سمات التوقيع "الإيجاز"، وهذا يدل جليا على لمسة الجنس الفارسي في بسط التوقيع وتطويله كما أنه دل على رد شكاية الرجل المسجون بما يناسب جرمه، ومنها مخاطبة الولاة والوزراء بما ضمن للرعية العدل ورد المظالم وسياسة الناس بالمعروف، من ذلك ما وقعه المأمون في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة «ياعمرو بن مسعدة أعمر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها»[4] فأمثال هذا التوقيع يحرص على تشديد الخلفاء أنفسهم على ضرورة إفشاء سياسة العدل والصلاح في الرعية وتأكيد أهمية العدل في بقاء حياة الدولة، ومن الموضوعات أيضا تنفيذ الحكم الشرعي في قضايا الجنايات سواء بإمضائها أو درء العقوبة ومن ذلك ما وقعه الفضل بن سهل في قصة رجل شهد عليه بأنه شتم أبا بكر وعمر عليهما رضوان الله «يضرب دون الحد ويشهر ضربه»[5]، وكذلك توقيعه في درء العقوبة في قصة رجل نهب بيت المال«يدرأ عنه الحد إن كان له فيه سهم»[6]، فهذه التوقيعات تحمل صورة في تأصيل المعرفة

(1)أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، مج4 ، ص 389 ، العقد الفريد ، مج4 ، ص304
(2) محمد محمود الدروبي ، الرسائل الفنية في العصر العباسي ، ص 75
(3) المرجع نفسه ، ص 76
(4) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مج4 ، ص289 ، جمهرة رسائل العرب ، مج4، ص378
(5)المصدر نفسه، مج4 ، ص 304
(6) المصدر نفسه ، مج4 ، ص303

الشرعية في نفوس هؤلاء إذ لم يكونوا قضاة بالمعنى الذي نفهمه ولكن أحكامهم لا تقل في دقتها عن أحكام القضاة أنفسهم, كما أن هذه التوقيعات كان من أغراضها العفو عن المذنبين ومن ذلك ما وقع به جعفر البرمكي في قصة مسجون«العدل أوقعه والتوبة تطلقه»[1]، فأمثال هذا التوقيع يحمل في طياته البشارة بالانفراج ولذا نرى المذنب يرقب صدور التوقيع بلهف وتوق شديدين إذ تعد كلمات التوقيع عنده سبيلا إلى الخلاص من وطأة المحنة التي يكابدها، فأغراض التوقيع لم تقف عند هذه الحدود بل شملت تلبية نداء المتضررين والثناء على الولاة والعمال بعدد من الصفات التي دعت إلى صدور التوقيع في حق الممدوح, ومن ذلك ما وقع به الفضل بن سهل إلى أحد العمال«نعم الشفيع في بقاء النعمة عليك حسن سيرتك، واعتماد الصيانة والعفاف، فدم على هذه الطريقة تبق لك النعمة إن شاء الله تعالى»[2]، فتوقيع الفضل هدف في شطره الأول إلى تقريظ عامله بشيء من محامده، أما في شطره الآخر بإغراء ذلك العامل بالثبات على هذه السيرة التي ضمنت له بقاء النعمة، ومن تلك الأغراض أيضا تنظيم علاقة السلطان بسائر الطوائف التي من حوله, فهذه الأغراض أبرز مضامين التوقيعات إلى قبيل القرن الرابع الهجري وهي مضامين تتلون تلونا يدل على اتساعها الثر وقيمتها المختلفة .

فدراسة أغراض التوقيعات يعد مبحثا انفرد به الدرّوبي عن بقية الدارسين بالشرح والنقد ليثبت حقيقة أن التوقيعات تضمنت «الجانب الإعلامي إلى الرسائل السياسية فهي لون من المخاطبات الإعلامية التي عبر عنها فن الرسائل في هذا العصر على أن المجال الإعلامي في التوقيعات لا يعدو أن يكون فرديا أو شبه فردي لأنه يختص في الغالب بقضايا فردية خاصة»[3] لتبقى التوقيعات في نظر الدرّوبي والعباسية منها شديدة الحاجة إلى جهد علمي جاد يأخذ على عاتقه دراسة هذا الفن دراسة وافية من جانب وجمعها وتنظيمها من جانب آخر.

(1) أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب ، مج4 ، ص 384

(2) محمد محمود الدروبي ، الرسائل الفنية في العصر العباسي، ص84

(3)المرجع نفسه ، ص 89

7 . فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي(حمد بن ناصر الدخيل)

يعد حمد بن ناصر من الباحثين الذين قدموا دراسة شاملة عن فن التوقيعات الأدبية بدءا من نشأتها إلى أفول نجمها بسقوط الخلافة العباسية حيث ربطه بنشأة الكتابة عند العرب ليعرض أهم مصادرها الأدبية، ويتطرق بعدها إلى مفهوم التوقيعات في اللغة والاصطلاح وتطور دلالتها ويدرس أنواعها بحسب مصادرها ويخلص بعدها إلى وضع مقاييس التوقيع الأدبي، ويبرز أثرها على السياسة والأدب موردا في كل هذا نماذج من التوقيعات على اختلاف الأعصر.

انفرد هذا البحث عن غيره من البحوث السابقة في إبراز أهمية الكتابة في وجود التوقيعات الأدبية لا من حيث الإشارة فقط كما هو الحال في الدراسات السابقة بل عرض لها بالتفصيل والتحليل ليثبت أن التوقيعات«ليست فنا أدبيا يؤدى بواسطة المشافهة والارتجال كالخطابة والوصية والمحاورة والمفاخرة والمنافرة وغيرها من الفنون الأدبية الشفهية التي شاعت في العصر الجاهلي بل هي فن كتابي وجد مع شيوع الكتابة وازدهارها»[1] ولهذا السبب تأخرت التوقيعات في الظهور عن بقية الفنون الأخراة .

إن تعرض المؤلف لمصادر التوقيعات كان مقتصرا على أبرزها بالتعريف بها وفي هذا كذلك نراه يبدو متميزا ليقرر أن التوقيعات تبدو متفرقة متناثرة في كتب الأدب والتراث عامة وتحتاج في نظره«إلى جمع وتوثيق وضبط وشرح مع بيان المناسبات التي أملتها وقيلت فيها ثم دراستها دراسة موضوعية وفنية دقيقة»[2]، وما يلاحظ في عرض المؤلف لمصادر التوقيعات أن أغلبها يضمن لنا مادة التوقيع دون التنظير لها كما هو الحال عند ابن عبد ربه والثعالبي ليشيد بجهد أحمد زكي صفوت في كتابه جمهرة رسائل العرب بوصفه أهم مرجع حديث عني بجمع مادة التوقيعات .

أشار حمد بن ناصر إلى أنواع التوقيعات انطلاقا من مصادرها المتمثلة في القرآن أو الشعر أو المثل أو الحكمة، وفي هذا نراه أغفل مصدرا هاما من مصادرها هو الحديث النبوي الشريف، ليبسط القول في أصل التوقيعات جازما بنشأتها العربية عادا توقيع أبي بكر الصديق أول توقيع وفي هذا يقول«إن

(1) حمد بن ناصر الدخيل، فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي ، ص 1087
(2) المرجع نفسه ، ص 1086

التوقيعات فن أدبي نشأ في عصر صدر الإسلام وليس صحيحا ما ذهب إليه بعض مؤرخي الأدب العربي من أن التوقيعات فن أدبي عباسي أخذه العباسيون من الفرس»[1]

وقد أثبت المؤلف نماذج من توقيعات الخلفاء الراشدين ليصدر حكما بأن توقيعات علي رضي الله عنه أكثر من غيره دون أن يتبع لذلك تفسيرا أو تعليلا يوضح ذلك إذ يقول«وما وصل إلينا من توقيعات الخليفة علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أكثر مما بلغنا من توقيعات أبي بكر وعمر وعثمان»[2] ليقرر أن توقيعات صدر الإسلام تعد قليلة إذا ما قورنت بالعصور الآتية لتزدهر بعدها في العصر العباسي إذ حلت محل الخطابة في كثير من شؤون الدولة وذلك لازدهار الكتابة الفنية وعلو مكانتها لدى الكتاب حتى أصبح«الكاتب البليغ مطلبا من مطالب الدولة تحرص عليه وتبحث عنه لتسند إليه عمل تحرير المكاتبات وتحبير الرسائل في دواوينها»[3]، إن مقاييس التوقيع عند المؤلف تنحصر في ثلاثة مقاييس؛ الإيجاز والبلاغة والإقناع، إذ البلاغة أن يكون التوقيع مناسبا للحالة أو القضية التي قيل فيها، أما الإقناع فهو وضوح الحجة وسلامتها، ليحصل التسليم من جراء قوة المنطق وبراعته، ونلاحظ في اقتصار حمد بن ناصر على هذه الأسس الثلاثة دون غيرها ما هي إلا نظرة شمولية إذ هي الأسس الجامعة لما بقي وهي عماد التوقيع.

ومن المباحث التي تميز حمد بن ناصر الدخيل هو تعرضه لأثر التوقيعات في سياسة الدولة، وذلك أنها« ارتبطت منذ نشأتها بدواوين الخلفاء والوزراء، وكانت إحدى الوسائل المباشرة مثلها مثل الرسائل والخطب لتوجيه السياسة العامة للدولة، وتزويد الولاة والقواد في ولاياتهم ومواقع حروبهم بالنصائح والإجراءات المناسبة، فكل توقيع يوقعه الخليفة إلى وال أو وزير أو قائد يتضمن توجيها ذا علاقة بسياسة الدولة»[4]، وإغناء الأدب العربي حيث حرص كاتب التوقيع أن يكون توقيعه بليغا مؤثرا موجزا أتاح «للأدب العربي أن يظفر بطائفة من التعبيرات الأدبية الراقية تضم إلى ما أثر عن العرب

(1) حمد بن ناصر الدخيل، فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي ، ص 1100

(4) المرجع نفسه ، ص 1101 ، وربما عللنا أو أرجعنا كثرة التوقيعات عند علي ـ رضي الله عنه ـ أولا لفصاحته وبلاغته ، ثانيا للإضطربات والفتن التي عرفتها مرحلة خلافته.

(3) حمد بن ناصر الدخيل ، فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، ص 1105

(4) المرجع نفسه ، ص 1109

من حكم وأمثال وأقوال بليغة»[1]، ومع هذا كله يعد بحث حمد بن ناصر الدخيل من الدراسات التي ساهمت في تعريف طالب الأدب بهذا الفن المنسي، ولكنها تبقى دراسته تنظريه تفتقد إلى التطبيق والقراءة النصية التي تشتغل على نص التوقيع رأسا .

8 ـ مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم(مصطفى البشير قط)

اهتم البشير قط بفن التوقيعات من خلال كتابه, الذي قدم له بلمحة عن نشأة الخطاب النثري وتطوره وقسم الكتابه إلى قسمين؛ الأول لتحديد مفهوم الخطاب النثري بمفارقته ومقاربته ومفاضلته بين الخطابين النثري والشعري، أما القسم الثاني فهو لأجناس الخطاب النثري حيث قسمه إلى أجناس شفهية وأخرى كتابية ومنها الرسالة والقصص والمقامات والتوقيعات؛ إذ خص هذا الأخير بالدراسة والنقد حيث بدأ بمناقشة تعريف شوقي ضيف للتوقيعات«وهي عبارات موجزة بليغة تعود إلى ملوك الفرس ووزرائهم أن يوقعوا بها على ما يقدم من تظلمات الأفراد في الرعية وشكاواهم»[2]، ليقدم نقدا على ما أورده شوقي ضيف في عزو التوقيعات إلى ملوك الفرس «وقد ظهرت التوقيعات في الأدب العربي في صدر الإسلام عند الخلفاء الراشدين والدليل على ذلك ما أورده صاحب العقد الفريد من توقيعات للخلفاء الراشدين والخلفاء الأمويين»[3] وهذا على خلاف ما ذهب إليه« شوقي ضيف في قوله الآنف الذكر من تأثر الأدب العربي بالأدب الفارسي»[4] غير أنه لا ينفي شيوع التوقيعات وتطورها في العصر العباسي وتأثرها بروافد الثقافات الأخرى وفي مقدمتها الثقافة الفارسية «بسبب أن معظم وزرائهم وكتابهم كانوا فرسا فساروا على سنن آبائهم»[5]

لقد نفى البشير قط وجود دراسات حول فن التوقيع، سواء من حيث التعريف وتحديد السمات والخصائص، متجاوزا الكم الهائل من الدراسات التي أشرنا إليها سابقا، بغض النظر عن طبيعة تناولها، ليقدم تعريفا على«أنها تعليق الخلفاء والوزراء والأمراء على ما يرفع إليهم من الرسائل

(1) حمد بن ناصر الدخيل ، فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، ص 1109
(2) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول ، ص 489
(3) مصطفى البشير قط، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم ، ص 127
(4) المرجع نفسه ، ص 127
(5) المرجع نفسه ، ص 127

والقصص»[1]، فحكم البشير قط يبدو عاما إذ وجدنا من اهتم بتعريفها كما هو الحال عند القلقشندي والبطليوسي وابن خلدون وغيرهم, ليقدم أحكاما نقدية استنتجها من خلال نقاد درسوا فن التوقيعات، ومن هؤلاء الثعالبي من خلال كتابه خاص الخاص إذ يقول «عبارات الثعالبي في التعليق على مختلف التوقيعات على الرغم من اقتضابها وإيجازها الشديد تحمل في حد ذاتها حكما نقديا على تلك التوقيعات»[2]، ومن ذلك من" أحسن توقيعاته"، من" توقيعاته البارعة "، وأبو هلال العسكري إذ يطلق حكما نقديا واصفا بعض التوقيعات أنها صادرة عن طبع لا عن تكلف حيث يقول«ومن الكلام المطبوع السهل ما وقع به علي بن عيسى : قد بلغت أقصى طلبتك ، وأنلت غاية بغيتك، وأنت مع ذلك تستقل كثيري لك، وتستقبح حسني فيك»[3] .

وتبقى إشارة "البشير قط" إلى فن التوقيعات مقتضبة تهدف إلى لفت القارئ والباحث إلى هذا الفن الذي يكاد يغيب عن فنون النثر الأخرى، ليبقى هذا الفن حبيس بعض المصادر والمظان محتاجا إلى دراسة تحليلية فنية وجمالية تعنى برصد مواطن الإبداع فيه.

9 ـ فن التوقيعات في الأدب العربي (عبد الكريم حسين رعدان)

قدم عبد الكريم حسين دراسة عن فن التوقيعات مشيرا إلى أهمية هذا الفن النثري في مظهره الثقافي والنضج العقلي والاستيعاب الفكري الذي وصل إليه الإنسان العربي آنذاك، وقد عالج هذا الموضوع وفق خطة تضمنت مقدمة وثلاثة مباحث، ناقش الأول ناقش مفهوم التوقيعات وأهميتها ونشأتها وتطورها التاريخي، ليتناول الثاني طائفة من نصوص التوقيعات لمختلف العصور والوقوف عليها بالشرح اللغوي أما المبحث الثالث فوقف على تلك النصوص بالدراسة الأسلوبية والتحليل النقدي من حيث الخصائص الدلالية والأداء الأسلوبي وأثر تلك التوقيعات وفاعليتها الاجتماعية والإبداعية والنقدية .

افتتح الباحث دراسته بتساؤل عن دراسة جدية لفن التوقيع على الرغم من أهمية هذا الفن في النثر الأدبي والتراث العربي، فكل تلك الدراسات في نظره مجرد« تناولات موجزة أشبه بمقالات ولقد

(1) مصطفى البشير قط ، مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم ، ص 127
(2) المرجع نفسه، ص 128
(3) أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص 68

أصابني الاستغراب كيف أن مثل هذا الفن النثري لم يلق العناية ولم يصحبه جدل واسع مثلما هو الحال في غيره من فنون الأدب كالأمثال مثلا»[1]

لقد عرف الباحث التوقيعات الأدبية مركزا على ما قاله ابن خلدون واقفا على أهميتها فهي بالغة الأهمية في واقع الأدب العربي حيث تمثل صورة من صور النضج البلاغي في العصور الإسلامية، وتعد «مقياسا لبلاغة الحكام والأمراء والولاة ودليلا على قدراتهم في التعبير الراقي المتصف بالإيجاز والبيان وإيصال الكلام إلى مراده ومنتهاه»[2]، كما أنها تختص بعلية القوم من خلفاء وأمراء ويتم تداولها في الأوساط السياسية وهي ميزة تعلي من قيمة الأدب في نظر العديد من النقاد إذ يرون أن خير الأدب ما فهمته العامة ورضيته الخاصة[3] .

إن ما يميز بحث عبد الكريم حسين هو لفتته للجانب التطبيقي في المبحث الثالث من دراسته الذي خصصه للأسلوب الفني للتوقيعات، وفيه حاول قراءة بعض نصوص هذا الفن من زوايا جمالية مختلفة, نجملها في الآتي :

. البنائية :

اعتمدت التوقيعات في بنيتها الإيجاز التعبيري وهي تتماثل تماما مع الأمثال والحكم، وغاية العرب من استعمال هذه التوقيعات الاختصار والإيجاز والبعد عن التطويل ومن ذلك ما وقع به أحد القادة إلى الكتاب بقوله : «دققوا الأقلام, وأوجزوا الكلام، فإن القراطيس لا ترام والسلام»[4] بل وتكون الجملة التوقيعية غاية في الإيجاز اللفظي حين تأتي مفردة واحدة فقد وقع زياد بن أبيه في قصة متظلم بقوله : «كفيت»[5] . أو حرفا واحدا كما فعل الصاحب بن عباد في رقعة كتب بعضهم إليه فيها«إن رأى سيدنا أن ينعم بما سألته إياه فعل فزاد فيه ألفا ورد الرقعة إلى صاحبها»[6] (زاد الصاحب بن عباد الألف في كلمة "فعل"، "افعل").

(1) عبد الكريم حسين رعدان ، فن التوقيعات في الأدب العربي ، مجلة الدراسات الاجتماعية جامعة العلوم والتكنولوجيا اليمنية ،(د . ط) ، (2012م) ، ع 34 مج 17 ، ص 231

(2) المرجع نفسه ، ص 236

(3) ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل سوريا ، ط 5 (1401 هـ - 1981 م)، مج1 ، ص123

(4) عبد الكريم رعدان، فن التوقيعات في الأدب العربي ، ص 260 ، ينظر ، الثعالبي ، خاص الخاص ، ص 90

(5) المرجع نفسه ، ص 260 ، ينظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مج 4 ، ص300

(6) المرجع نفسه ، ص 261 ، ينظر ، الثعالبي ، خاص الخاص ، ص 93

إيقاع التوقيعات :

الإيقاع حدث موسيقي ليس مقصورا على الشعر، فالنثر في أنواعه المختلفة وأجناسه المتعددة يعتمد بشكل أو بآخر على الإيقاع خاصة إذا تولد من أنظمة أسلوبية ومعيارية كالبديع في علم البلاغة مثلا، بالإضافة إلى إيقاع الأصوات والمفردات والجمل عند حسن التركيب، ويرى كمال أبوديب أن « للنثر إيقاعه وبمعنى آخر أنه يقوم على إيقاع الفقرة أو السطر لأنه يستند بقوة الفصل والوصل فقد كانت مبادئ الفصل والوصل في الشعر الخليلي تقوم على طول التفعيلات وحدودها أما إيقاع النثر فيقوم على فصل ووصل من نمط مختلف ينشئه البعد الدلالي المتعلق بامتداد النفس والضغط النابع من تموجات التجربة والقراءة، والحركة الداخلية للهجة الشعرية»[1]

تتسم التوقيعات بعبارات قصيرة غالبا ما تكون كلمات ثنائية متجانسة أو متضادة أو جملا متقابلة أو مرصعة فعندما نقرأ توقيع معاوية بن أبي سفيان «نحن الزمان من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتضع»[2] نجد فيه الإيقاع الموسيقي ينبعث قويا من تناظر الكلمتين "ارتفع" و "اتضع" وأيضا بما يحدثانه من وقع في تناظرهما السجعي الجميل, ومثل ذلك الإيقاع نجده في جناس الكلمات ونلمسه في رنين التكرار الصوتي لحروفها كما في الجناس التام المتماثل في قولهم «دارنا هذه خان يدخلها من وفى ومن خان»[3]

ومن أساليب البديع التي تحدث إيقاعا رد الصدر على العجز كما في توقيع معاوية بن أبي سفيان إلى ربيعة بن عسل اليربوعي الذي سأله أن يعينه على بناء دار له بالبصرة فوقع على رسالته «أدارك في البصرة، أم البصرة في دارك»[4]، كما نجد الإيقاع في الكلمات الثنائية المتضادة حيث تحدث تناقضا سمعيا له وقع رائع بين الشيء وضده كما في توقيع عمر بن عبد العزيز لأحد عماله يستأذنه في أن يرمم أو يصلح من شأن المدينة فوقع إليه عمر «ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم»[5] .

(1) كمال أبو ديب، في البنية الإيقاعية للشعر العربي، دار العلم للملايين, بيروت، ط2(1981م)، ص221.
(2) عبد الكريم رعدان، فن التوقيعات في الأدب العربي ، ص 264 ، ينظر ، الثعالبي ، خاص الخاص ، ص 86
(3) المرجع نفسه ، ص 264 ، ينظر الكلاعي ، إحكام صنعة الكلام ، ص 161
(4) المرجع نفسه، ص 265 ، ينظر ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مج 4 ، ص 288
(5) المرجع نفسه، ص 265 ، ينظر، ابن عبد ربه ، العقد الفريد، مج 4 ، ص 290

الخصائص الدلالية :

التوقيعات صور من صور الإيجاز الدلالي المكثف وفيها رمزية بعيدة المفهوم تحتاج إلى دراسة تحليلية معمقة حتى تسبر غور دلالتها فالتوقيع القائل« ابق لهم لحوما يعقدوا بها شحوما»[1] يحمل رسالة مشفرة قوية الدلالة للحجاج من عبد الملك بن مروان يدعوه فيها إلى الكف عن ظلم أهل السواد والإثقال عليهم في جباية المال منهم وزيادة الخراج عليهم، أما التعريض الدلالي فنجده في توقيع المنصور على كتاب بليغ استملحه «إن البلاغة والغنى إذا اجتمعا في رجل أطغياه»[2] فهو لم يوجه إليه الخطاب وإنما ذكر سبب الطغيان المتمثل في البلاغة والغنى وهما كناية عن اللسن والترف ، كما أن بعض التوقيعات نجدها تحمل خطابا صريحا لا يخلو من قوة في دلالته الصارمة كما في توقيع أبي عبد الله الكاتب المهدي إلى رجل كتب إليه يعتذر ولا يحسن, فوقع في كتابه «ما رأيت عذرا أشبه باستئناف ذنب من هذا»[3]

وليست الصورة البلاغية أقل شأنا من الأساليب البلاغية الأخرى فقد حفلت التوقيعات بالعديد من الصور البلاغية الموحية تشبيها واستعارة ومجازا وكناية؛ فمن التشبيهات البيانية توقيع المهدي في قصة متظلمين شكوا بعض عماله «لو كان عيسى عاملكم قدناه إلى الحق كما يقاد الجمل المخشوش يريد عيسى ولده»[4]، وصورة استعارية نجدها في توقيع هارون الرشيد في قصة البرامكة بقوله «أنبتتهم الطاعة و حصدتهم المعصية»[5] ففي هذا التعبير نرى التصوير الإستعاري الذي يضفي على التعبير قوة دلالية وفنا جماليا يظهر من ذلك التناقض الذي وقع فيه أولئك حيث نبتوا نباتا طيبا في الطاعة ولكن المعصية حصدتهم، أضف إلى ذلك التقابل الدلالي بين إنبات الطاعة وحصاد المعصية الذي زاد من وضوح الصورة وجمالها[6]، ومن الكنايات الرائعة ما جاء في توقيع هارون

(1) عبد الكريم رعدان، فن التوقيعات في الأدب العربي ، ص 266، ينظر ، الثعالبي ، خاص الخاص ، ص 87
(2) المرجع نفسه ، ص 266، ينظر، الثعالبي، خاص الخاص ، ص 88
(3) المرجع نفسه ، ص 266 ، ينظر ، الثعالبي ، خاص الخاص ، ص 90
(4)المرجع نفسه ، ص 267 ، ينظر ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مج 4، ص 295
(5) المرجع نفسه ، ص 267 ، ينظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد، مج 4 ، ص 296
(6) ينظر ، عبد الكريم حسين رعدان ، فن التوقيعات في الأدب العربي ، ص 267

الرشيد إلى صاحب خراسان «داو جرحك لا يتسع»[1] وهو كناية عن استفحال الأمر وقيام الناس بثورات نتيجة للظلم وغياب العدل وإهمال مصالح الرعية .

الأداء الأسلوبي :

تتنوع التوقيعات في صياغتها لتأخذ أساليب خبرية وأخرى إنشائية ؛ ففي الأسلوب الخبري تأتي التوقيعات توضيحا لأمر ما أو تأتي حثا عليه أو إشادة به، كتوقيع أبي صالح في رقعة معتذر تائب«التوبة للذنب كالدواء للمريض فإن نصحت توبته أتم الله شفاءه وإن تكن الأخرى أدام الله داءه»[2] ، ومن التوقيعات الخبرية البليغة توقيع المأمون على رقعة متظلم «ليس بين الحق والباطل قرابة»[3] أما الإنشاء فيتنوع بين أساليب الأمر والنهي و الإستفهام وغيرها، ومعظم الأساليب الإنشائية في التوقيعات تأتي لأغراض حقيقية كما في توقيع خالد بن يحي إلى رجل عاوده لالتماس الصلة بعد أن أخذها مرة «دع الضرع يدر لغيرك كما در لك»[4]

الأثر النقدي للتوقيعات :

التوقيعات مطبوعة بطابع نقدي, بل اتجه العديد منها في دلالته إلى تناول قضية نقدية واضحة من ذلك ماروي أن شخصا كتب إلى الصاحب بن عباد رقعة وقد أغار فيها على رسائله وسرق جملة من ألفاظه فوقع فيها﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾[5]، ووقع في رقعة استحسنها﴿أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون﴾[6] ففي الأولى يشير ابن عبد ربه إلى قضية «السرقة الأدبية التي وجدها في كلام الرجل أو المحتوى الذي في تلك الرقعة، فكانت الآية المقتبسة رمزا كنائيا وقد حملت ملمحا نقديا واضحا»[7] وفي الثانية اقتباس قرآني يوحي بالإعجاب والإشادة بالنص الذي تضمنته الرقعة كما أن انتشار تلك

(1) المرجع نفسه، ص 267 ، ينظر ابن عبد ربه ، العقد الفريد، مج 4 ، ص 296
(2)) المرجع نفسه، ص 269 ، ينظر ، الثعالبي ، خلص الخاص ، ص 91
(3) المرجع نفسه ، ص 269 ، ينظر ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مج 4 ، ص 298
(4) المرجع نفسه، ص269، ينظر ، الثعالبي خاص الخاص ، ص 91
(5) المرجع نفسه ، ص 273 ، ينظر ، الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، مج 3 ، ص 234، يوسف الآية65
(6) المرجع نفسه ، ص 273 ، ينظر ، الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، مج 3 ، ص 234
(7) المرجع نفسه ، ص 273

التوقيعات الموجزة في العهود العباسية والأندلسية واتساعها«أضفى على الحركة الأدبية والتأليف سمة الإيجاز والتركيز على العبارة المختصرة»[1]

إن دراسة عبد الكريم حسين لفن التوقيعات تعد الدراسة الوحيدة ـ حسب اطلاعنا ـ التي اهتمت بالجانب التطبيقي و بالدراسة والتحليل، ولعل هذا السبب كان الباعث إلى مثل هذا العمل، ومع ذلك يبقى الجانب التطبيقي في التوقيعات في حاجة إلى مزيد الدراسة، ومحاولة استخراج ضوابط فنية وموضوعية انطلاقا من النص نفسه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

(1) عبد الكريم حسين رعدان، فن التوقيعات في الأدب العربي ، ص 273

الخـــــاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمة :

إن دراستنا لفن التوقيعات الأدبية كونه أحد الفنون النثرية التي ظهرت وفق ظروف أدبية وسياسية جعلت من هذا الفن يكبر ويترعرع في ظل الحضارة العربية إلا أنه لم ينل حظه من الدراسة إلا من حيث التنظير، ومن أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث :

ـ التوقيعات فن أدبي ارتبط بوجود الكتابة بعد أن كانت الخطابة والشفاهية مسيطرة على العقل العربي، فوجود الكتابة غيرت ذهنية العربي ليهتم بالفنون الكتابية كالمقامة والرسائل .

ـ التوقيعات فن أدبي نشأ في ظل الإسلام وازدهر، وليس صحيحا ما ذهب إليه بعض الباحثين من العرب أخذوه من الفرس، وذلك لتوافر الأدلة والبراهين على ذلك؛ إذ التوقيعات عرفت في زمن العصر الإسلامي من خلال توقيع أبي بكر الصديق أو عمر بن الخطاب على اختلاف الباحثين في ترجيح أول توقيع، ومع ذلك تبقى التوقيعات تنحصر في زمن العصر الإسلامي وهذه أكبر حجة .

ـ نمت التوقيعات نموا واسعا في العصر العباسي وأخذت تعدل عن سبيل الإيجاز إلى الإطالة أحيانا لشيوع الجنس الفارسي، واستطاعت أن تعبر عن مناحي متباينة من علاقة السلطة بالأفراد كما أنها ارتبطت بالسياسة وعلية القوم ولا يمارسها إلا البلغاء وأصحاب اللسن والقدرة على إدارة الكلام .

ـ التوقيعات فن عربي خالص، إلى الجنس العربي واختلاف الدارسين فيها ما زاد إلا يقينا في عزوها إلى الجنس العربي، وقد ذهب إلى هذا كل من نبيه حجاب ومحمد عبدالمنعم خفاجي ومحمد محمود الدروبي وحمد بن ناصر الدخيل وهاشم مناع موردين في هذا مجموعة من الأدلة .

ـ يعد عبد الغفور الكلاعي أول دارس عني بدراسة الأجناس النثرية ولا سيما فن التوقيعات في عده جنسا نثريا له أسسه وقواعده .

ـ إن فن التوقيع لم يعد تابعا للرسالة أو ذيل منها وذلك لما قدمناه من أدلة تجعل هذا الفن قائما بذاته وإن كان منشأه من أدب الترسل ثم إن تطور هذا الفن من دلالة رد على الشكاوى والرقاع إلى إبداع شخصي يوقعه الموقع يخرجه كل الخروج من دائرة الترسل، بل إن التوقيعات هي جنس نثري له أسسه ومنهجه .

ـ اتسمت التوقيعات بالحكمة والنصح والإرشاد والتهديد والتوبيخ والوعيد تظهر فيها بلاغة قائلها، وتتميز أيضا بالجدة والطرافة والتنوع لأنها صادرة عن أناس لهم إسهامات كبيرة في تثبيت أركان الدولة الإسلامية وصياغة مستقبلها .

ـ احتوت التوقيعات اتساع المعرفة وعمق التفكير ودقة الإصابة والإجابة وأصالة الذوق متضمنة بعض المحاسن البديعية العفوية فضلا عن الإيجاز في اللغة ودقة الفكرة وسلامة العبارة متأثرة بالقرآن الكريم .

ـ علت التوقيعات متعة تعبيرية وجمال في ألفاظها تستعذب الأسماع وتهذب العقول فإنها عملت على توجيه الواقع السياسي, وساهمت في معالجة شؤون الحكم وحل كثير من القضايا الاجتماعية ورفع الظلم وإقامة العدل ورفض الخصومات وتهذيب السلوك بتعبير بلاغي موجز وفن من القول الرفيع وخطاب جدي صارم .

ـ تميزت التوقيعات بالإيجاز البلاغي ودقة الصياغة ومتانة التركيب وقوة المعنى وتنوع في بنيتها وتراكيبها بين أساليب خبرية وإنشائية واقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وتوظيف الأمثال والحكم والشعر مما أكسبها مفاهيم دلالية واسعة ترمي كلها إلى إيحاءات ورموز وتعريض تنتهي بالمعنى إلى ذهن المتلقي وتستوفي الغرض الدلالي بكل وضوح وتأثير.

ـ شملت التوقيعات عدة أغرض مختلفة ومتنوعة ولعل أهمها؛ رد المظالم وإقامة العدل وتلبية نداء المتضررين المعوزين وما يجري مجرى الحياة الدينية .

ـ لقد حظي فن التوقيع في المدونتين النقدية القديمة والحديثة بالتنظير وضرب المثال بأنواع من التوقيعات المختلفة دون أن يشفع بالتطبيق مما جعل من هذا الفن يحتاج إلى مزيد عناية ودراسة تطبيقية عميقة أكثر من شيء آخر .

ملخص :

لقد شغلت الدراسات الشعرية في الأدب العربي ما لم يعرف لفن آخر إذ هو ديوان العرب يعبرون به عن سوانحهم وبوارحهم، وهو وسيلة إعلامهم والمتحدث باسم القبيلة، وبظهور الإسلام ودخول كثير من الأمم فيه ظهر التفاعل قويا بين الحضارات والآداب وظلت قضايا النثر أو الجوانب النثرية في الأدب العربي محدودة بالقياس إلى قضايا الشعر إلى أن أخذت الحياة العربية تدخل إبان العصر العباسي مرحلة التعقيد الفكري والاجتماعي، فبرز النثر يطرح نفسه وسيلة فكر وأداء، وأصبح الشعر قاصرا عن التعبير عن بعض القضايا والمضامين وبحلول القرن الرابع الهجري سجل النثر أكبر انتصاراته على الشعر ولاسيما عندما انتقلت الحياة الأدبية من المشافهة إلى الكتابة، ومن خلال هذا كله جاءت هذه الدراسة الموسومة **بفن التوقيعات في النقد العربي** لتكشف عن جانب مظلم من حياة النثر إذ أن فن التوقيعات ارتبط بالكتابة والسياسة فهو نوع من الأنواع الأدبية الرفيعة لا يظهر مع بداية حياة الشعوب بل يحتاج إلى حياة متطورة في شتى أنوعها منطلقين من الإشكال: كيف تلقى النقاد العرب نص التوقيعات؟ ليتفرع عنه تساؤلات ولعل أبرزها: لماذا لم نجد دراسة فنية جمالية تكشف عن أغوار التوقيعات رغم ما تشتمل عليه من كثافة وإيجاز مع أن كتب الأدب تحفل بفيض زاخر منها منذ العصر الاسلامي حتى أفول نجمها في أواخر العصر العباسي؟

ومن جملة تلك المصادر والمراجع التي تناولت هذا الموضوع قديما **الكلاعي** من خلال كتابه إحكام صنعة الكلام، و**ابن خلدون** في مقدمته، و**القلقشندي** في صبح الأعشى، أما حديثا فأغلبها دراسات نثرية في مجلات ماعدا جمهرة رسائل العرب **لأحمد زكي صفوت**، والرسائل الفنية في العصر العباسي **للدروبي**، ومن أهم تلك الدراسات التي نشرت في المجلات فن التوقيعات في العصر الإسلامي والأموي والعباسي **لحمد بن ناصر الدخيل**، وفن التوقيعات في الأدب العربي **لعبد الكريم حسين رعدان**، متتبعين هذه الدراسة بمنهجين؛ تاريخي في تعقب تطور هذا الفن بدءا من العصر الإسلامي إلى العباسي، وإحصائي في رصد عدد التوقيعات بالنسبة لكل موقع ومدى حضورها أو قلتها مردفا ذلك بجملة من التعليلات والتفسيرات.

ملخص :

أما الخطة فتنحصر في ثلاثة فصول؛ فلأول في التوقيعات الأدبية النشأة والتطور ويندرج تحته مبحثان يتضمن الأول التعريف بالتوقيع ونشأته وأهم أنواعه، أما الثاني فيعرف بموضوعاته وأهم خصائصه الفنية، أما الفصل الثاني فيتناول مادة التوقيع في المدونة النقدية القديمة ويضم ثلاثة مباحث فيخص الأول المصادر التي كفلت لنا مادة التوقيع ليكون الثاني في أهم المصادر التي نظرت فيه، أما الأخير فيخص تلك المصادر التي أشارت إلى فن التوقيع إشارة عابرة كالبيان والتبين والصناعتين ليكون الفصل الثالث لمادة التوقيع في المدونة النقدية الحديثة مصدرا وتنظيرا لهذا الفن، خاتمين هذا البحث بخاتمة رصدنا فيها أهم النتائج المتوصل إليها في هذا البحث، وبالجملة نقول لقد حظي فن التوقيع في المدونتين النقدية القديمة والحديثة بالتنظير وضرب المثال بأنواع من التوقيعات المختلفة دون أن يشفع بالتطبيق مما جعل من هذا الفن يحتاج إلى مزيد عناية ودراسة تطبيقية عميقة أكثر من شيء آخر .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الآيات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

السورة	الآية	رقمها	الصفحة
البقرة	﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم﴾	14	26
البقرة	﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾	79	58
البقرة	﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء﴾	261	16
الأعراف	﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾	199	16
هود	﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا﴾	30	52
يوسف	﴿أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾	44	26
يوسف	﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾	65	80 . 58
الشعراء	﴿فإن عصوك فقل إني برئ مما تعملون﴾	216	66 . 50
النمل	﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾	27	19
الطور	﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمَ أَنتم لا تبصرون﴾.	15	80 . 58 .15

فهرس الأبيات الشعرية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأبيات الشعرية :

البـــــــيت		الشاعر	الوزن	الصفحة
ألا موت يباع فأشتريـــه	فهذا العيش ما لا خير فيه	الحسن بن محمد المهلبي	الوافر	16
إذا أبصرت قبرا من بعيد	وددت لو أنني مما يليـــه			
ألا قل للوزير فدته نفســـي	مقال مذكر ما قد نسيـــه	بلا نسبة	الوافر	16
أتذكر إذ تقول لضنك عيش	ألا موت يباع فأشتريـــه			
زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا	أبشر بطول سلامة يا مربـــع	جرير	الكامل	17
ولا كتب إلا المشرفية والقنا	ولا رسلا إلا الخميس العرمـرم	المتنبي	الطويل	17
رأيت في النوم أني راكب فرسا	ولي وصيف وفي كفي دنانير	بلا نسبة	البسيط	26
فقال قوم لهم فهم ومعـرفـــة	رأيت خيرا وللأحلام تعبيـــر			
رؤياك فسر غدا عند الأمير تجد	تعبير ذاك وفي النوم التباشير			
وليس أخو الحاجات من بات نائما	ولكن أخوها من يبيت على رحل	طاهر بن الحسين	الطويل	27
أعجلتنا فأتاك عاجل بـــرنـــا	قـــلا ولـــو أخرته لم يقلـــل	الحس بن وهب	الكامل	65
فخذ القليل وكن كمن لم يسأل	ونكون نحن كأننا لم نفعل			
بسطت لساني ثم أوثقت نصفه	فنصف لساني بامتداحك مطلق	العتابي	الطويل	65
فإن أنت لم تنجز عداتي تركتني	وباقي لسان الشكر بالناس موثق			

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثبت المصادر و المراجع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثبت المصادر و المراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

1- الآبي(أبو سعيد منصور بن الحسين)، من نثر الدُر عَلّق عليها مظهر الحجي، ط (1997م)، منشورات وزارة الثقافة، (د.ط) 1997م.

2- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، (د. ط)، (د. ت)

3- أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب في العصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، بيروت لبنان، (د.ط)،(د.ت).

4-إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق ط1(2001م)

5-البطليوسي(أبو محمد عبد الله بن محمد السيد)، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تحقيق عبد الله أفندي البستاني، المطبعة الأردنية بيروت، (د.ط)،(1907م).

6- البغدادي، تاريخ بغداد، المكتبة السلفية, المدينة المنورة، (د.ط)،(د.ت).

7 – الثعالبي، خاص الخاص، منشورات مكتبة الحياة، بيروت لبنان(د.ط)،(د.ت)

8- الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت.

9- الثعالبي، تحفة الوزراء، تحقيق سعد أبودية، دار البشير عمان ط1(1413هـ - 1994م)

10- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة ،ط7(1418هـ 1998م) .

11- الجاحظ، المحاسن و الأضداد، تحقيق فوزي عطوى، الشركة اللبنانية بيروت لبنان (د.ط)1969

12- جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، دار مكتبة الحياة,بيروت لبنان، (د.ط)1967

13- الجهشياري، الوزراء و الكتاب، تحقيق عبد السلام إسماعيل الصاوي، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي مصر، ط1 (1357هـ - 1938م)

14- الخليل(بن أحمد الفراهيدي)، العين، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، دارالكتب العلمية بيروت لبنان، ط1(1424هـ -2002م).

15- ابن خلدون، المقدمة، دار الرائد العربي, بيروت لبنان، ط5(1402هـ - 1982م).

16- ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر بيروت، (د.ط)(1428 - 2007م).

17- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح إحسان عباس، دار صادر بيروت،(د.ط)،(د.ت).

18- الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح شعيب الأرناؤوط، ط3(1405 هـ - 1985 م)

19- الرازي، مختار الصحاح، ترتيب محمود خاطر، دار الحديث (د.ط)،(د.ت)

20- ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه تحقيق محمد محي الدين، دار الجيل سوريا، ط5(1401هـ -1981م)

21- الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر، ط1(1414هـ - 1994م)

22 - الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط15(2002م)

23- شكري فيصل، مناهج الدراسة الأدبية في الأدب العربي، دار العلم للملايين، ط6(1406هـ -1986م)

24- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول، دار المعارف ط16(2004م)

25- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس، دار المعارف، القاهرة، (د.ط)،1981م

26- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، ط11(د.ت)

27- ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط1(1404هـ . 1983م)

28- علي جاسم سلمان، موسوعة أعلام الخلفاء، دار أسامة للنشر الأردن عمان(د.ط)، (د.ت).

29- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق، طه حسين بك و عبد الحميد العبادي، مطبعة الأميرية القاهرة (د.ط)1941م

30- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية القاهرة (د.ط)(1340هـ . 1992 م)

31- الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت لبنان،(د.ط)(د.ت).

32- كمال أبو ديب، في البنية الإيقاعية للشعر العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2(1981م)

33- محمد عبد المنعم خفاجي, الآداب العربية في العصر العباسي الأول ، دار الجيل بيروت. ط1 (1412هـ .1992م)،

34- محمد محمود الدروبي، الرسائل الفنية في العصر العباسي، دار الفكر ط1(1420هـ .1990م)

35- محمد نبيه حجاب، بلاغة الكتاب في العصر العباسي دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب، مكتبة الطالب الجامعي مكة المكرمة ط2(1407هـ . 1986م).

36- محمود المقداد، تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، دار ا لفكر المعاصر، بيروت لبنان ط1 (1413 هـ- 1993 م)

37- مصطفى البشير قط مفهوم النثر الفني و أجناسه في النقد العربي القديم، دار اليازودي الأردن عمان (د.ت)(2009م)

38- مصطفى الشكعة، الأصول الأدبية في صبح الأعشى، دار الكتاب المصري القاهرة ط2 (1414هـ .1993م)

39- ابن منظور، لسان العرب، تحقيق أحمد حيدر، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط1 (2005م)

40- هشام مناع ومأمون ياسين، النثر في العصر العباسي, دار الفكر العربي بيروت لبنان، ط1(1999م) .

41- أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة و الشعر، تحقيق محمد علي البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي ط2 (د.ت)

42- أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، مطبعة محمود بك، ط1(1319هـ)

الرسائل الجامعية:

1- أحمد سعيد أحمد الزهراني، النثر الفني عند المترسلين من الشعراء في القرن الثالث الهجري، جامعة أم القرى،(1417هـ)، رسالة دكتوراه .

2- علي خذري، القلقشندي وكتابه صبح الأعشى، جامعة قسنطينة(1403هـ - 1983م)، رسالة ماجستير.

المجلات:

1- حمد بن ناصر الدخيل، فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي، مجلة أم القرى (1422هـ - 2001م)، ع22.

2- حسين نصار، أدب المراسلات في العصر الأموي مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام الكويت, (د.ط) (1983م)، مج14، ع3

3- خالد محمد الهزايمة وعدنان محمود عبيدات، التوقيعات في نهاية عصر بنو أمية، مجلة التراث العربي، ع 106.

4- رشيدة عابد، بلاغة النثر وضروب الكلام في التراث العربي(قراءة في كتاب إحكام صنعة الكلام)، مجلة الخطاب، ع 08، (2011).

5- صالح بن معيض الغامدي، منحى الكلاعي في نقد النثر، مجلة جامعة الملك سعود، مج 7،(1415هـ - 1995م) .

6- عبد الكريم حسين رعدان، فن التوقيعات في الأدب العربي، مجلة الدراسات الاجتماعية، جامعة العلوم والتكنولوجيا اليمنية (2012م)، ع34.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

مقدمه..... أ – و

الفصل الأول : التوقيعات الأدبية النشأة و التطور..... 8 – 23

المبحث الأول: تعريف التوقعات نشأتها و أنواعها..... 8- 18

1-التوقيع لغة واصطلاحا..... 8- 10

2-نشأة التوقيعات 10- 16

3-أنواع التوقيعات..... 16- 18

المبحث الثاني : التوقيعات موضوعاتها وخصائصها الفنية..... 18- 23

1-موضوعاتها 18- 21

2-شروط كتاب التوقيعات..... 21- 22

3-الخصائص الفنية للتوقيعات..... 22- 23

الفصل الثاني : التوقيعات في المدونة النقدية القديمة..... 25- 48

المبحث الأول : مصادر التوقيعات..... 25- 35

1-العقد الفريد لابن عبد ربه..... 25- 28

2-الوزراء والكتاب للجهشياري..... 28- 29

3-من نثرر الدرر للآبي..... 30- 31

4-مؤلفات الثعالبي (خاص الخاص، تحفة الوزراء، يتيمة الدهر)..... 31- 35

المبحث الثاني : التوقيعات ومصادر التنظير لها..... 36- 48

1-إحكام صنعة الكلام للكلاعي..... 36- 40

2-المقدمة لابن خلدون..... 40- 41

3-صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي..... 41- 44

المبحث الثالث : الذين أشاروا إلى التوقيعات إشارة عابرة..... 45- 48

1-البيان والتبين للجاحظ..... 45- 46

2-الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري..... 46- 46

3-البرهان في وجوه البيان لابن وهب..... 46- 47

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

4-الاقتضاب في شرح أدب الكتاب للبطليوسي..... 47- 48
الفصل الثالث : التوقيعات في المدونة النقدية الحديثة..... 50- 81
المبحث الأول :قراءة في مصادر التوقيعات..... 50- 56
- جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت..... 50- 56
المبحث الثاني : دراسات حول فن التوقيع..... 56- 81
1-بلاغة الكتاب في العصر العباسي لمحمد نبيه حجاب..... 57- 59
2-الآداب العربية في العصر العباسي الأول لمحمد عبد المنعم خفاجي..... 59- 60
3-تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام لمحمود المقداد..... 60- 63
4-النثر الفني عند المترسلين من الشعراء لأحمد سعيد أحمد الزهراني..... 63- 66
5-النثر في العصر العباسي لهشام مناع ومأمون ياسين..... 66- 69
6-الرسائل الفنية في العصر العباسي لمحمد محمود الدروبي..... 69- 72
7-فن التوقيعات الأدبية في العصر الإسلامي والأموي والعباسي لحمد بن
ناصر الدخيل..... 73- 75
8-مفهوم النثر الفني وأجناسه في النقد العربي القديم لمصطفى البشير قط..... 75- 76
9-فن التوقيعات في الأدب العربي لعبد الكريم حسين رعدان..... 76- 81
الخاتمة..... 83- 84
فهرس الآيات..... 87- 88
فهرس الأبيات الشعرية..... 89- 90
ثبت المصادر والمراجع..... 91- 96

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية